سمومهم اليوم أدهى... وللتنبُّه أدعى

لا تثريب على الناظر في خلائق يهود؛ بحثاً عن الحقيقة بتجرد وأمانة، أن يذهب إلى أن ما قام به اليهود، من جعل واحد من مراكب الموت، هديةً لرسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام، سَداها ولُحمتها السّم الناقع ـ إلى جانب كونه جريمة نكراء ـ لها دلالتها العميقة على ما وراء ذلك من الحقد والحرص على الأذى بأية وسيلة ـ يزيدها شناعة أن يكون مركب الموت هدية الطعام، والهدية ـ في الأصل ـ تعبير عن الود والمحبة والصفاء.

ثم إن المُهدى إليه ـ على صعيد المعتقَد ـ رسول من عند الله يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ لما أن كتابهم السماوي أخبرهم خبره، وفصّل القول في صفاته وأخلاقه، بالقدر الذي يعين على الدلالة عليه، وعلى صدق دعواه بأنه يحمل رسالة الإسلام للعالمين، وحملهم ذلك على أن يستفتحوا به على الذين كفروا.

ويقتضينا توثيق الحكم على من لعنهم الله، فأصمّهم وأعمي أبصارهم، أن نذكّر بما أشرنا إليه ـ غير مرة ـ من عظمة موقفه الكريم، حين لم يكن منه لهم من أول يوم وطئت قدماه المدينة المنورة مهاجرَه وإخوانه إلا العدل والإحسان، ولكنهم في تعاملهم اليومي لم يكونوا على هذا المستوى بل كانوا ـ كما دلت الوقائع ـ في الحضيض.

فعلى الرغم من توافر الأسباب التي يفترض أن تسدد خطاهم، فيؤمنوا برسالته، وإن لم يؤمنوا: أن لا يخونوا ولا يمكروا ويغدروا، رأيتهم بعد أن أضاء الصبح لكل ذي عينين، وأعلنت الدعوة المحمدية إعلانها، ينكصون على أعقابهم، ويستبدلون العماية بالهدى، وراحوا لا يكتفون بالكفر والتكذيب، بل يفترون ويبهتون، ويشعلون نار الحرب في السر والعلن، متعاونين مع أعداء الله من مشركين ومنافقين. قال الله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٨، ٨٩].

ومن عجب: أنهم في حوارهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، تجاهلوا أنهم مأمورون بالإيمان به بصريح النص في التوراة، وعلّلوا صنيعهم ـ بإهدائه الشاة المسمومة ـ بالحرص على اكتشاف ما إذا كان صادقاً في دعوى الرسالة أو غير صادق؛ فإن كان صادقاً لا تضره تلك الهدية المسمومة أو ينبأ بهذا، وإن كان غير ذلك: يكونوا قد أحسنوا للعباد بإراحتهم منه!! فانظر أيَّ غرض إنساني حرصوا على تحقيقه من خلال سمِّهم سيدَ العالمين وخاتم النبين!!

هذا: وليس من نافلة القول، أن أعود إلى التذكير بأن مجموع الروايات تدل ـ بما لا يقبل الشك ـ أن ما قامت به المرأة الإسرائيلية، كان تنفيذاً ـ والله أعلم ـ للخطة التي بيتوها، وعملوا على أن يصلوا من

خلالها إلى تحقيق ما يريدون، والوقاحة في الاعتراف، مصحوباً بالسبب الذي حملهم على ما صنعوا ـ على زعمهم ـ جزء من تلك الخطة الآثمة.

ولقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ـ حين جلّى هذه النقطة المهمة ـ بعرضه لواقعة السَّم في كتابه القيم «زاد المعاد» عرضاً يوحي بالتكامل بين الخطة المرسومة وبين تنفيذها. قال ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن وقائع غزوة خيبر: (وفي هذه الغزاة سُمَّ رسول الله ﷺ؛ أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلاّم بنِ مِشكَم مشويةً قد سمَّتها، وسألت أيُّ اللحم أحب إليه: فقالوا: الذراع: فأكثرت من السَّم في الذراع، فلما انتهش من ذراعها، خبَّره الذراع بأنه مسموم، فلفَظ الأكلة ثم قال: «اجمعوا لي من ههنا من اليهود» فجُمعوا له فقال لهم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ فيه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان. قال: «كذبتم أبوكم فلان» قالوا: صدقت وبررت. قال: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم. وإن كذبناك، عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا! فقال رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها، فوالله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ «قالوا: نعم. قال: «أجعلتم في هذه الشاة سَمّاً؟» قالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرَّك».

مرة أخرى: إنها واقعة من عدد الوقائع التي كانت من جنايات اليهود وكيدهم الذي لم يتوقف ـ لرسول الله ﷺ والمسلمين ـ وتتابعت الفصول النكدة عبر تاريخ طويل، لتؤكد الأحداث ـ وحتى يوم الناس هذا ـ طبيعة المنطلقات التي ينطلق منها أولئك الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، في نظرتهم إلى اتباع الرسالة الخاتمة ـ بعامة ـ وإلى الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ بخاصة ـ.

فالسَّم الذي وضع قبل أربعة عشر قرناً في الشاة المصليّة التي جيء بها هديةً له عليه الصلاة والسلام: يوضع للمسلمين اليوم أضعاف أضعافه، ولكن على الصور التي تتناسب مع العصر، وتطور الأساليب والمفاهيم المطروحة في الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والإعلام.. وكل ما يمتُّ إلى ذلك بسبب وذلك فيما يغزوهم، ويزيّن لهم على صعيد الثقافة والفكر، وما يدعونه بالتطور الحضاري، ثم على صعيد المعايير التي يفسَّر بها التاريخ، وتوزن بها الوقائع والأحداث، وتربط المسببات بالأسباب، وفق المنهج الذي يرونه، ويراه المغفلون والمنتفعون والسدنة المارقون.. فضلاً عن الأصعدة الأخرى!!

والمطلوب في منطق المواجهة الجادّة: أن تتدبر الأمة وقائع الماضي، تدبراً يمتد رواؤه إلى فهم الحاضر، والارتفاع على المعوقات من داخل النفوس، ومن خارجها، تلك المعوقات التي توقع في الغفلة، أو تمنع وضوح الرؤية، وتحول دون البذل والعطاء.

وقبل هذا وبعده: لا بد من تسمية الأشياء بأسمائها، والاعتراف بأن

الحَيدة عن سنن الله في كونه العريض: من عوامل الهلكة والدمار؛ فماذا ترقب الأمة من أعداء الله والحق وصنائعهم، بعد الذي صنعوا ويصنعون من هذه السلسلة العاتية عبر التاريخ، بدءاً من لحظات المواجهة بينهم وبين رسالة الإسلام في جزيرة العرب؟؟ وماذا نحن منتظرون ـ وفعالهم التي يسخِّرون لها العلم والمال الذي يحوزونه ـ بلا حدودٍ من دين أو خلق ـ ناهيك عن الدس الإعلامي والعبث الاقتصادي وما إلى ذلك... ولا تسل عن المعونات التي يلقونها من هنا وهناك.. ماذا، وفعالهم هذه تزداد مخاطرها يوماً بعد يوم، ولا يخفى على ذي بصيرة معافىً من الوهن والنفاق: أنها حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، فاغرة أفواهها كيما تبتلع الخصوم، وتقضي على البقية الباقية من الخير، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ألا إن الثوابت التي زخرت بها نصوص الهداية، وأكدتها الوقائع، أبرزت الحقيقة فيما عليه القوم من خلائقَ وطرائقَ في الفكر والعمل والسلوك، وكشفت عن البواعث الحقيقية التي تكمن وراء تصرفاتهم.. وهذا كله ـ والقليل منه يكفي ـ حجة على الأمة لا يمكن الفَكاك منها، إلا بانتهاج السبيل الأقوم؛ علماً وعملاً وجهاداً وانضباطاً في السلوك والأخلاق.

وحين تمضي الأمة قدماً على هذه الطريق، يكون لها من الله فرقان، وتستنير أمامها المسالك الصعبة، ويتحقق لها التمكين والنصر بإذن الله وفق سنته الحكيمة سبحانه ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قتل الأنبياء.. ودعوى الإيمان!

محاولة اليهود قتلَ النبي ﷺ من طريق العزم على إلقاء الصخرة عليه، من قِبَل بني النضير، أو من طريق الهدية المشؤومة المسمومة، من قِبَل يهود خيبر.. هذه المحاولة بواقعيتها: ينبغي أن لا تكون موضع استغراب من حيث المبدأ، لما أن ذلك جارٍ على السَّنَن الذي سلكه آباؤهم وأجدادهم، الذين بلغت بهم حِطَّة الضلال، أن يقتلوا الأنبياء المؤتمنين على وحي السماء؛ فإذا أقدم الأحفاد ـ على ما هو من منهج الآباء والأجداد وهم على سننهم دونما تغيير أو تبديل ـ لم يكن ذلك عجباً من العجب.

ولعل من الخير أن أعيد إلى الأذهان ما أشرت إليه غير مرة، من أن القرآن الكريم، خاطب ـ في العديد من المواطن ـ اليهود الذين كانوا في عصر النبوة، كأنهم هم الذين أساؤوا تلك الإساءات البالغة، التي اقترفها آباؤهم الأولون؛ لما أن الطينة واحدة، والمسلك واحد، والرضى قائم عن صنيع أولئك الضُّلال الذين سبقوهم على طريق الإثم. وهذا يوجه إلى الإفادة من أحداث التاريخ، ثم إلى الطريقة التي يحسن الأخذ بها، على صعيد التعامل مع من حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها، وقاموا بقتل أنبياء الله، دونما تحسُّب من الفارق الزمني؛ فاليهودي هو اليهودي، مهما اختلف الزمان والمكان والظروف!!

وإذا كان الأمر كذلك: فما بد من اصطحاب الكلمة الهادية التي كشفت عن هذه الخليقة فيهم، خليقةِ الجراءة على دم الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام ـ ناهيك عن تكذيبهم ـ وفي ذلك ما فيه، من إغضاب لله في عليائه سبحانه، وإساءة ـ بالغة الظلمة والنَّكارة ـ إلى الحق والإنسان حتى قيام الساعة!! جاء في الآية السابعة والثمانين من سورة البقرة قولُ الله جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧] قال الإمام الطبري: (يقول الله جل ثناوه لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراة، وتابعنا من بعده بالرسل إليكم، وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجج؛ إذ بعثناه إليكم، وقوّيناه بروح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي، بغير الذي تهواه نفوسكم، استكبرتم عليهم ـ تجبُّراً وبغياً ـ استكبارَ إمامكم إبليس، فكذبتم بعضاً منهم، وقتلتم بعضاً، فهذا فعلكم أبداً برسلي) !!.

هكذا كانت بنو إسرائيل، تعامل الأنبياء الذين جاؤوا بالهدى من ربهم أسوأ المعاملة، ففريقاً من هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام – كذَّبوا، وفريقاً يقتلونه، وماذاك إلا لأن هولاء الأنبياء كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لرغباتهم الجامحة وأهوائهم، ويعملون على إلزامهم بأحكام التوراة، التي قد جنحوا عنها وتصرفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان يشقُّ ذلك عليهم، وتتعذر عليهم طاعتهم فيه، فيكذبونهم، وربما وصل بهم التمادي في الطغيان إلى أن يقتلوا بعضهم؛ ولهذا جاء التعبير القرآني، يحمل هذا اللون من الإنكار والتوبيخ ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ يوحي بالتكرار والاستمرار في هذ الشطط والعياذ بالله، والإخبار عن ذلك واضح في هذا الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ ـ وإن كان خرج مخرج التقرير في الخطاب ـ فهو بمعنى الخبر عن هذا الذي يصنعونه عامدين مصرّين.

ولا تطول بنا الرحلة، حتى تطالعنا الآية الحادية والتسعون من سورة البقرة نفسها، بالإنكار عليهم قتلَ الأنبياء، وبيانِ أن ذلك مخالف أشدَّ المخالفة لدعوى الإيمان، فلو كان إيمانهم صادقاً، لم يقدموا على تلكم الجرائم النكراء ـ خصوصاً إذا أدَمنا اصطحاب الأهمية العظمى لمكانة النبي واتصاله بالسماء؛ ذلكُم قوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

لقد جاء كشف هذا الزيف في دعوى يهود بني إسرائيل، بهذا الأسلوب الرفيع الذي يزدان بالعمق والوضوح، خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام قل يا محمد لهؤلاء اليهود ـ الذين إذا قلتَ لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ـ قل لهم: لم تقتلون ـ إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم كما تزعمون ـ أنبياءه ـ وقد حرّم عليكم في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم ـ بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟. وهذا الخطاب ـ كما أراده الخالق جل شأنه ـ يحمل ما يحمل من شديد التأنيب والتوبيخ المصاحبين لإقامة الحجة عليهم من دعاواهم الكاذبة.

هذا: وقد استوقفت العلماءَ صيغةُ التعبير في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حيث ابتدأ الخبرعلى لفظ المستقبل ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ ثم أخبر أنه قد مضى، بقوله: «من قبل؟» واختلف القول في تعليل ذلك، وصوّب شيخ المفسرين ما به تدرك بلاغه التعبير القرآني، في إحكام العلاقة ـ في المخالفة عن أمر الله في كتابه المنزل ـ بين السابقين واللاحقين.

قال ـ يرحمه الله ـ: (والصواب فيه من القول عندنا، أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل ـ بما خاطبهم في سورة البقرة وغيرها من سائر السور ـ بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم، وبما سلف من كفران أسلافهم نِعَمَهُ، وارتكابهم معاصيه، واجترائهم عليه وعلى أنبيائه، وأضاف ذلك إلى المخاطبين به، نظيرَ قول العرب بعضها لبعض: فعلنا بكم يوم كذا، كذا وكذا، وفعلتم بنا كذا، كذا وكذا... يعنون بذلك: أن أسلافنا فعلوا كذا بأسلافكم، وأن أوائلنا فعلوا كذا بأوائلكم. فكذلك في قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ إذ كان قد خرج على لفظ الخبر عن المخاطبين به، خبراً من الله تعالى ذكره، عن فعل السابقين منهم ـ على نحو الذي بيّنا ـ جاز أن يقال: «من قبل» إذ كان معناه: قل: فلم يقتل أسلافكم أنبياء الله من قبل؟ وكان معلوماً بأن قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ إنما هو خبر عن فعل سلفهم، والحكمة في الخطاب على هذه الصورة لم تعد خافية؛ فقد جرى الكشف عنها غير مرة، ويأتي لذلك مزيد بيان. وتأويل قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل اليوم.

وغيرُ خاف أيضاً أن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لا يدع زيادة لمستزيد، في كشف المواربة، والتناقض المخزي عند اليهود، وإقامةِ الحجة عليهم في دعوى الإيمان بما أنزل الله عليهم من الكتاب، والوقوعِ فيما هو مخالفة صريحة لما يزعمون أنهم به مؤمنون، لا فرق بين من ابتلي رسول الله والمسلمون بهم، وبين أسلافهم من قبل، لأن هؤلاء يتولون أولئك الأسلاف راضين عن ضلالهم المبين. وأفعالهم المجافيةِ لوحي السماء.

فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مؤمنين بما نزَّل الله عليكم كما زعمتم. وإنما عنى بذلك ـ وكلامه الحق والصدق ـ اليهودَ الذين أدركوا رسول الله ﷺ وأسلافَهم ـ إن كانوا وكنتم كما تزعمون أيها اليهود، مؤمنين.

وهنا مفصِل القضية في التسوية بين الأسلاف وأحفادهم، فالأسلاف هم الذين قتلوا، والمعاصرون لرسول الله ﷺ لم يقتلوا !! ولكن الله الذي يعلم خبايا النفوس، وأهلية أصحابها عيَّر ـ جلّ ثناؤه ـ هؤلاء بقتل أوائلهم أنبياءَه، عند قولهم حين قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله: نؤمن بما أنزل علينا، لأنهم ـ كما يقرر ابن جرير وآخرون ـ كانوا لأوائلهم الذين تولوا قتل أنبياء الله ـ مع قيلهم: نؤمن بما أنزل علينا ـ متوليِّن وبفعلهم راضين، فقال لهم. إن كنتم ـ كما تزعمون ـ مؤمنين بما أنزل عليكم، فلم تتولَّون قتلة أنبياء الله؟ أي ترضون أفعالهم؟ سبحان الله !! كأن الكلام يتنزّل غضّاً طرياً اليوم؛ فما أشبه الليلة بالبارحة! إنه الواقع الذي يؤكد بتجدده

حقيقة أن يهود اليوم، صورة لا تختلف عن يهود الأمس، مع زيادة القدرة على الانحراف بسبب تطوُّر الوسائل ووجود أعوان السوء!

والأمر الذي لا غنى عن التذكير به مرةً أخرى: أن اليهود وضعوا ما تمليه أهواؤهم وشهواتهم، بدلاً عما جاءت به التوراة التي بأيديهم، والتي يزعمون الإيمان بها، فهم في غنية ـ على حدِّ زعمهم الهابط ـ عن الإيمان بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام؛ وكان أن أثمر هذا الموقف المخزي الذي سَداه ولحمته التناقض والعبث الكفري.. أثمر تجاوزاً صارخاً، لم يقتصر على عدم القيام بما تلزمهم به التواراة من أحكام، ولكن تجاوزوا ذلك إلى تكذيب الأنبياء، بل إلى قتل بعضهم ـ كما سلف ـ والإصرار على ذلك، مولّين ظهورهم للحق، مستمسكين بالباطل، عناداً وتشهياً واستبكباراً.

فالله تبارك وتعالى يقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أُنزل إليكم من التوراة، فَلِمَ قتلتم الأنبياء المبلِّغين عن الله، الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكمِ بها وعدمِ نسخها؟ ترتكبون هذه الموبقة فيهم، وأنتم تعلمون صدقهم على وجه اليقين. قتلتموهم ظلماً وبغياً، وعناداً، واستكباراً عليهم، وهم الذين يحملون إلى الناس هداية الله التي أوحاها إليهم، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء!! كما رأينا فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾.

أما بعد: فإنها حجة الله عليهم من حيث اقتراف الإثم الكبير، والإصرار على ارتكاب الموبقة التي تغضب الله وتستمطر اللعنات.

كما أنه حجة الله على أمتنا في وجوب الاعتبار، ولزومِ المحجة النقية التي تركها عليها سيد الأنبياء والمرسلين، محمد عليه الصلاة والسلام، ووضع ما هدى إليه الكتاب والسنة في شأنهم موضعه اللائق على ساحة الواقع المثقل بالتحديات التي تتجدّد وتتنامى يوماً بعد يوم.

وهذا كفيل ـ إذا صدقت النيات وصحت العزائم ـ بردِّ الأمور إلى نصابها، وتحقيق القدرة على استئناف الوجود الذاتي لأبناء الرسالة الخاتمة. وما ذلك على الله بعزيز..

هكذا يقولون.. جراءةً على الله

لا يعوز الناظر في كتاب الله تبارك وتعالى، أن يقع على العديد من النصوص التي تؤكد حقيقة اليهود قتلة الأنبياء ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وأنهم كانوا يقدمون على هذه الجريمة التي هي عدوان على الحق والإنسانية، مع علمهم بأحقية ما كان عليه أولئك الأنبياء عليهم السلام، بل ومفاخرتهم الناس، بأنهم أهل كتاب، مؤمنون مصدقون.

ومن هذه النصوص: ما يحمل وعيداً على تلكم الفعلة النكراء، ومنها ما يحمل الإخبار عن عقوبات أوقعها الله فيهم، جزاء ما اكتسبوا من هذا الإثم الشنيع.

ها نحن أولاء نقع في سورة آل عمران، على وعيد شديد بعذاب يحيق بهم في الدنيا والآخرة، على قالة سوء بالغة القباحة، مضمومةٍ إلى قتلهم الأنبياء بغير حق؛ نقول ـ كما قال القرآن ـ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لأن هذا تقرير للواقع فليس هنالك قتل للأنبياء بحق. وإذن: فليس هنالك مفهوم مخالفة لتعبير ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فالله بيّن أن فَعْلتهم هذه هي الضلال كلُّه على هذه الساحة، وليس لها نصيب من الحق. وقالةُ السوء هذه: هي قولهم ـ ويا بئس ما قالوا ـ: إن الله فقير ونحن أغنياء. ذلكم قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه في الآية الحادية والثمانين بعد المائة منها: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾**﴾ [آل عمران: ١٨١] روى الحافظان

ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض، فأنزل الله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾ الآية. ولابد أن يستوقف التالي لهذه الآية الكريمة قوله جل شأنه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لأن التعبير المعجز، يوحي بأن قتلهم الأنبياء سابق لهذه القالة الفظيعة المنكرة، ومن كان من أخلاقه، أن يقدم على قتل أنبياء الله المؤتمنين على وحيه، فليس غريباً أن يجري على لسانه هذا الهراء، وهذا يدل ـ فيما يدل ـ على جذرية النظرة المادية البحتة في نفوسهم؛ فالله فقير ـ ونستغفر الله ـ وهم أغنياء، والأنبياء لا يأتونهم بالمال الذي يطلبونه بأية وسيلة مهما كان شأنها.

وفي الكلمة القرآنية الحكيمة إشعار الناس أيضاً، بأن هؤلاء ليسوا حديثي عهد بالإجرام على هذه الساحة، ولكنهم ذوو سوابق قبيحة مَرَدوا عليها من قبل. من أجل هذا كان من بلاغة القرآن، نظم هذه القالة مع ما سبقها من قتلهم الأنبياء، إيذاناً بتلك السوابق، وأنها ـ على شناعتها ـ ليست أول جريمة يقترفونها. وعلى هذا: فينبغي التنبه دائماً، إلى أن من بلغ بهم سوء الطوية، والاستخفاف بالدين، حداً يجترئون معه على قتل أنبياء الله المؤتمنين على وحيه، لا يستبعد منهم أيُّ لون من ألوان الانحراف؛ ومن ذلك هذا الكلام الذي، أقلُّ ما يقال فيه: إنه سوءُ أدب

بالغ مع الله الخالق الرازق المنعم سبحانه، وجحودٌ لحقيقة الألوهية واتصافه سبحانه بصفات الكمال كلها.

وترى أن الصحابة – رضي الله عنهم –، مع علمهم بخلائق اليهود المعاصرين لهم، وأنهم راضون عن صنيع أسلافهم ـ يتولونهم ولا يحيدون قيد أنملة عن نهجهم المردي ـ كان وقْعُ ما قالوه من تلك القالة المنكرة بالغة السوء، شديداً عليهم، لما فيه من جراءةٍ واضحة على مقام الربوبية، وانتهاكٍ لحرمة الأدب مع الله، فضلاً عن ما فيه من الإفك والبهتان!! قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: «دخل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بيت المدراس فوجد من يهود، أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقاله له: أشيع.

فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً، ما استقرض منا ـ كما يزعم صاحبكم ـ ينهاكم عن الربا، ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الرب، فغضب أبو بكر – رضي الله عنه –، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد، لضربت عنقك يا عدو الله

فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً! زعم أن الله فقير وهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك، غضبتُ لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢] وأخرجه الطبري في التفسير بزيادة: (وفي قول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب): ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]. كما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن طريق عكرمة عن ابن عباس.

والوعيد الشديد واضح في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ ولذلك قرنه ربنا سبحانه بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم!! هذا قولهم في الله الغنيِّ الحميد، وهذه معاملتهم لرسل الله. ولهذا قال جل ذكره: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

والمعنى: ونقول للقائلين بأن الله فقير ونحن أغنياء، القاتلين أنبياء الله بغير حق يوم القيامة: ذوقوا عذاب الحريق بذلك، ذوقوا عذاب نار محرقة ملتهبة تصلونها وبئس المصير.

وفي تقرير للعدالة الإلهية، وأن العذاب مردُّه إلى ما كسبت أيديهم، جاء قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي قولنا لهم يوم الحساب: ذوقوا عذاب الحريق بما اجترحت أيديكم من المآثم واكتسبتها، أيامَ حياتِكم في الدنيا، وبأن الله عدل، لا يجور، فيعاقب عبداً بغير استحقاق منه العقوبة، ولكنه يجازي كل نفس بما كسبت، ويوفي كل عامل جزاءَ ما عمل، فيعاقب الذين قال لهم ذلك يوم القيامة (من اليهود الذين وصف صفتهم، فأخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقتلوا أنبياء الله بغير حق) يعاقبهم بما يعاقبهم به من عذاب الحريق، العذاب بالنار الملتهبة المحرقة، بما اجترحوا من السيئات، واكتسبوا من الآثام مع الله ورسله، وكذبوا على الله بعد البيان والإعذار إليهم بالإنذار؛ فهو سبحانه لا يضع عقوبته في غير أهلها، ولا يظلم أحداً من خلقه، ولكنه العادل بينهم، المتفضل عليهم بما أحبّ من نعمه التي لا تحصى، وفواضله التي لا تستقصى.

وجميل ما سلكه الطبري - رحمه الله -، في معاودة الكشف عن السبب في توجيه الخطاب لأولئك اليهود المعاصرين لنبينا عليه الصلاة والسلام، بما صنعه أسلافهم - على الجميع لعائن الله -؛ فهو لايدع أن يزيد هذه المسألة بياناً، لما يرى من ضرورة ذلك، كي يتسنى لمن يحرص على تدبر الآيات والانتفاع بها، أن لا يغيب عنه هذا الجانب العميق المشرق في محور الهداية، عند الحديث عن هؤلاء الناس، وما اجترحوا ويجترحون من مجاهرة الله ورسله بالعداوة والصدود. وفائدة ذلك في واقع الأمة؛ حاضراً ومستقبلاً: لا تخفى.

فقد أجاب – رحمه الله – عن تساؤل، قد يُطرح عند تفسير الآيات: ـ وهو أن الذين قالوا قالة السوء في عصر النبي ﷺ، لم يكن منم أحد قتل نبياً من الأنبياء، لأنهم لم يدركوا نبياً من الأنبياء فيقتلوه... أجاب بأنه قيل ذلك في الآية: لأن الذين عنى الله تبارك وتعالى بهذه الآية ـ وهم الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء ـ كانوا راضين بما فعل أوائلهم؛ من قتلِ من قتلوا من الأنبياء، وكانوا وفق أهوائهم وعلى مناهجهم من استحلال ذلك واستجازته، فأضاف ـ جل ثناؤه ـ فعلَ ما فعله من كانوا على مناهجهم وطريقتهم إلى جميعهم، إذ كانوا أهل ملة واحدة، ونحلة واحدة، وبالرضى من جميعِهم فَعَلَ ما فَعَل فاعلُ ذلك منهم، على ما بينا من نظائره فيما مضى من قبل.

وهذا الذي نرى: يصلنا بقوله تعالى في سورة آل عمران أيضاً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١] حيث بينت الآية الكريمة أنه اجتمع لهؤلاء الأناسي الكفر بآيات الله، وأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق ـ هكذا بصيغة المضارع دليلَ الإصرار والاستمرار ـ وأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ـ. هكذا بصيغة المضارع أيضاً دَليل إصرارهم واستمرارهم على هذا الصنيع الفاسد ـ والكلام صريح في ذم أهل الكتاب، فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم ـ كما يقول العلماء ـ بآيات الله قديماً وحديثاً، وهي الآيات التي بلَّغتهم إياها الرسل، وكان ذلك استكباراً على أولئك الرسل عليهم السلام، وعناداً لهم ـ في تعاظم أجوف على الحق، واستنكافٍ عن اتباعه. ولم تقف غوايتهم عند هذا

الحد، بل قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن شرعه، ولا سبب ولا جريمة منهم إليهم ـ قاتلهم الله ـ إلا لكون أولئك الأنبياء ـ عليهم السلام ـ دعوهم إلى الحق، وهم يرغبون عنه إلى الباطل الذي يرضي أهواءهم وشهواتهم. ثم تجاوزوا ذلك إلى قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وهذا هو غاية الدَّخَل النفسي، والكبر والصد عن سبيل الله، كما قال ﷺ فيما روى مسلم عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه –: «الكبر بطر الحق وغمط الناس».

بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. ومعنى غمط الناس: احتقارهم يقال في الفعل منه غمَطه يغمِطُهُ. وقد أورد الحافظ ابن كثير عند تفسيره الآية ما أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي عبيدة عامر بن الجراح – رضي الله عنه – قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً، من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا من قتلوهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل».

هذا وقد جاء الوعيد في ختام الآية الأولى، متسقاً مع استحقاقهم النكال على تلك الجرائم، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وجاء بعد

ذلك قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢٢].

لقد كفروا بآيات الله، وتكبروا عن الحق، واستكبروا على الخلق، وأصروا على العناد الآثم، فقابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، ناهيك عن حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة. ولله عاقبة الأمور.

قتل الأنبياء .. ونقض الميثاق

سبحان ربنا العلي الأعلى الوهّاب الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا تخفى عليه خافية مما تنطوي عليه دخائل النفوس وما تكنّه ذات الصدور. وليت أنّا نحن المسلمين ننتفع على الوجه الذي ينبغي بما نشهده من إحاطة الكلمة القرآنية بكل ما تلزم الإحاطة به من خلائق يهود، وركائز مناهجهم في السلوك، والبواعث التي تحملهم على التصرف اليهودي مع الآخرين ـ بعامة ـ ومع المسلمين ورسولهم عليه الصلاة والسلام ـ بخاصة ـ وموقفهم النابي الجاحد الهابط من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، وما يدعون إليه من الحق الذي نزل به الكتاب.

وفي متابعة لهذا الموقف من الأنبياء عليهم السلام، تجدر الإشارة إلى أن التالي لكتاب الله، يقع على صورة أخرى ـ بجانب ما سبق ـ تكشف عن تهديد الله ووعيده إياهم على قتلهم الأنبياء، مقروناً ذلك بنقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله، واعتذارهم المعوجّ عن عدم انتظامهم في سلك الهداية التي دعاهم الأنبياء إليها؛ فكان منهم التكذيب، بل قتل الأنبياء أحياناً، وكفرهم وقولهم على مريم البهتان العظيم، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم. يقول الله تعالى بدءاً من الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من سورة النساء، في معرض الحديث عن يهود بني إسرائيل:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا

غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٨].

هكذا يتكرر ذكر الاجتراء على أنبياء الله، بتكذيبهم وقتل جمٍّ غفير منهم؛ فقد أتت الآيات على مجموعة من الذنوب التي ارتكبوها، الأمر الذي أوجب طردهم وإبعادهم عن الهدى؛ وهي نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله ـ وهي حججه وبراهينه، والمعجزات التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام وشاهدوها بأم أعينهم ـ. وكذلك قتلهم الأنبياء بغير حق. وتعبير ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يدل دلالة قاطعة على أنهم قتلوهم استكباراً وعتواً، وطاعة لأهوائهم الضالة وشهواتهم الفاسدة؛ فهذه هي الحقيقة لأن الكلام هنا ليس له مفهوم مخالف ـ كما أسلفنا ـ إذ ليس هناك قتل للأنبياء بغير حق، وقتل بحق. ولكن الكلمة القرآنية تصوِّر واقعهم في هذا التعامل المشين مع الأنبياء عليهم السلام: وهذه الجريمة الشنعاء ضموا إليها كفراً بعد كفر، وبهتاً عظيماً لمريم أم عيسى، وذلك الزعم الباطل في شأن المسيح عيسى عليه السلام.

هذا: وقد كشف العلامة أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» عن معالم أساسية في الأسلوب

القرآني هنا، تجلّي المعاني المرادة، وتنير سبيل الفهم والانتفاع بعونه تعالى فعند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ﴾ قال - رحمه الله -: «وهو أعظم من مطلق كفرهم لأن ذلك سدٌّ لباب الإيمان عنهم وعن غيرهم، لأن الأنبياء سبب الإيمان، وفي محو المسبب محو السبب. ولما كان الأنبياء معصومين من كل نقيصة، ومبرئين من كل دنيَّة، لا يتوجه عليهم حقٌّ لا يؤدونه، قال: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي لا كبير ولا صغير أصلاً. وهذا الحرف لكونه في سياق طعنهم في القرآن - الذي هو أعظم الآيات - وقع التعبير فيه بأبلغ مما في آل عمران الذي هو أبلغ مما سبق عليه؛ لأن هذا مع جمع الكثرة، وتنكير الحق، عبر فيه بالمصدر المفهم، لأن الاجتراء صار لهم خلقاً وصفة راسخة - يعني تعبير - ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ﴾ - بخلاف ما مضى، فإنه بالمضارع الذي ربما دل على العروض..».

وهذا يكشف عن سر من أسرار التكرار في القرآن الكريم؛ فهو بلا ريب لحكم عظيمة؛ إذ التكرار في مسألة قتل الأنبياء بجراءة شنيعة من يهود بني إسرائيل على الصور المتعددة التي ورد فيها ذكر ذلك: مما يعين على الإحاطة المطلوبة، ويدخل القناعة إلى نفس من أراد مقنعاً بأن هذا الاجتراء المردي، صار لهؤلاء القوم خلقاً وصفةً راسخة، كما يقول البقاعي رحمه الله.

وقد أحسن صاحب «نظم الدرر» صنعاً في بيان ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بياناً يسعف في تجلية العديد من النقاط التي تطرحها الآيات الكريمة في الحديث عن اليهود. وقد مهّد لذلك بالإشارة إلى أن القرآن

بعد أن أتى على قتلهم الأنبياء، في عداد تلك الجرائم التي يقترفونها، ذَكَرَ أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظائمهم إلى الله تعالى، فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف أي لاذنب لنا؛ لأن قلوبنا مغشاة بأغشية جِبِلِّيَّة؛ فهي شديدة الصلابة، لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥]. أي فلسنا نحن الملومين لأن قلوبنا خلقت بعيدة عن فهم ما يقول الأنبياء، وذلك سبب قتلهم ورد قولهم. وقد حصل هذا منهم بعد أن كانوا يقرّون بهذا النبي الكريم، ويشهدون له بالرسالة، وبأنه خاتم الأنبياء، ويصفونه بأشهر صفاته، ويترقبون إتيانه، لا جرم ردَّ الله عليهم عطفاً على ما تقديره «وقد كذبوا» لأنهم ولدوا على الفطرة، كسائر الولدان، فلم تكن قلوبهم في الأصل غُلفاً ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ﴾ أي الذي له معاقد العز ومجامع العظمة ﴿عَلَيْهَا﴾ طبعاً عارضاً ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم، لكونها غلفاً بحسب الجبلة ـ كما يزعمون ـ بل إنه خلقها أولاً على الفطرة، متمكنة من اختيار الخير والشر، فلما أعرضوا ـ بما هيأ قلوبهم له من قبول النقض ـ عن الخير، واختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم، وتركوا ما تدعو إليه عقولهم: طبع سبحانه وتعالى عليها، فجعلها قاسية محجوبة عن رحمته، ولذا سبب عنه قوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي منهم كعبد الله بن سلام – رضي الله عنه – وأضرابه، أو إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به لتمرُّن قلوبهم على الكفر والطغيان.

وبعد: فليس من الغرابة في شيء ـ أن تشدنا الآية السابعة والخمسون بعد المائة، إلى تبيُّن أن زعمهم قتل عيسى بن مريم رسول الله، جارٍ على كون قتل الأنبياء من خُلُقهم وسجاياهم؛ فهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن شُبِّهَ لهم، ولكنهم كانوا عازمين العزم الأكيد على قتله، فقالوا كذباً إنهم قتلوه.

ومن بلاغة القرآن العظيم أن أسلوبه في التعبير عن ذلك، كشف عن أنهم كانوا مبتهجين بقتل عيسى عليه السلام ـ كما زعموا ـ قال العلامة أبو السعود في تفسيره «الإرشاد السليم إلى مزايا القرآن الكريم» «نظمُ قولهم هذا ـ يعني قوله: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ـ في سلك سائر جناياتهم التي نعيت عليهم، ليس لمجرد كونه كذباً، بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبي عليه السلام والاستهزاء به؛ فإن وصفهم له ـ عليه السلام ـ بعنوان الرسالة، إنما هو بطريق التهكم به كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦] ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح، على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل منه تعالى، مكان ذكرهم القبيح. وقيل: هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى مدحاً له، ورفعاً لمحله، وإظهاراً لغاية جراءتهم، في تصديقهم لقتله، ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك».

وتقودنا الرحلة مع آي الكتاب الحكيم إلى وقفة عند الذي أشرنا إليه من قبل، في شأن عقوبات حلّت بيهود بني إسرائيل،، جزاء اجترحهم قتل الأنبياء مع كفرهم بآيات الله، من ذلك ما نجد في الآية الحادية

والستين من سورة البقرة من قول الله جل ذكره: ﴿ ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٦١].

هكذا يخبر الله جل ثناؤه أنه أبدل يهود بني إسرائيل بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضى عنهم غضباً، وأن ذلك كان جزاءاً منه لهم على كفرهم بآياته وقتلهم أنبياءه ورسله؛ اعتداءً وظلماً منهم بغير حق، وعصيانهم لهم، وخلافاً عليه. والتعبير موح ـ كما أسلفنا من قبل ـ بأن قتل أنبياء الله قد أصبح لهم خلقاً وصفة راسخة. والملاحظ أن الأسلوب القرآني الحكيم، لا يدع الإبانة عن أن ما أنزل الله بالمغضوب عليهم من العقوبة، إنما كان بسبب ما اجترحوه من تلك العظائم ـ والعياذ بالله ـ ومنها قتلهم الأنبياء؛ فإنهم قتلوا كما قال البيضاوي ـ رحمه الله ـ شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون معه جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا، كما أشار إليه بقوله: ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾.

والترابط واضح بين الجريمة وأختها؛ فقد جرّهم العصيان والتمادي بالباطل والاعتداء فيه، إلى الكفر بالآيات، وقتل النبيين الذين هم مصدر تبليغ الهداية عن الله للبشر؛ فإن الإصرار على صغار الذنوب، سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها كما أن صغار الطاعات ـ على حد قول علمائنا ـ أسباب مؤدية إلى تحري كبارها، ثم إن الترابط النكد بين قتل الأنبياء، وبين الكفر بالآيات: أشد وضوحاً، لأن الكفر بالآيات ـ مع شدة وضوحها

في عالم الشهادة ـ أبعدُ رتب الكفر من الإيمان ـ كما يقول العلماء ـ. نقل العلامة البقاعي عن الشيخ علي بن أحمد الحراليِّ التجيبي ـ من علماء المغرب، المتوفىٰ سنة ٦٣٨ هـ قوله: «والكفر بالآيات أبعد الرتب من الإيمان، لأنه أدنى من الكفر بالله، لأن الكفر بالله كفر بغيب والكفر بآيات الله كفر بشهادة» ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد: ١٩ ـ ٢٠] ثم قال البقاعي: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ أي كان ذلك جبلة لهم».

وفي إيضاح لما كان من الحكمة والعدل الإلهي؛ بإحلاله بأسه ونكاله بهم جزاء ما اكتسبوا من تلك الموبقات، قال الحافظ ابن كثير: «هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع ـ وهم الأنبياء وأتباعهم ـ فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم؛ فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق». وجاء ـ رحمه الله ـ على ذكر الحديث المتفق على صحته وقد أوردته من قريب من رواية مسلم ـ وهو قوله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد بن عبد الرحمن قال: قال ابن مسعود: «كنت لا أُحجب عن النجوى، ولا عن كذا، ولا عن كذا ـ قال ابن عون: فنسي واحدة ونسيت أنا واحدة ـ فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بنُ مُرارة الرهاوي، فأدركته من آخر حديثه وهو يقول: يا رسول الله قُسم لي من الجمال ما ترى! فما أحب أن أحداً فضلني بشراكين فما فوقهما، أفليس ذلك هو

البغي؟ فقال: لا، ليس ذلك من البغي، ولكن البغي من بطر - أو قال - سَفهَ الحق وغمط الناس» قال ابن كثير: «يعني ردَّ الحق وانتقاصَ الناس والازدراءَ بهم والتعاظمَ عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحلّ الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً».

سبحان الله!! أيُّ داهية دهت أمتنا حتى أصبح من باؤوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة يهددونها في عقر دارها، بعد أن اغتصبوا أرضاً شاسعة من أرض المسلمين وديارهم، وفيها المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وشاء سبحانه أن يكون مسرى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ومن خصائصه أنه أولى القبلتين، وتضاعف الصلاة فيه إلى خمسمائة ضعف؟ ناهيك عن الأذى المتواصل، قتلاً وتدميراً، وعدواناً بلا حدود!!

نعم إنها داهية المخالفة عن سنن الله في هذا الكون، والقعود عن الأخذ بأسباب النصر، على العكس من صنيع من ضربت عليهم الذلة والمسكنة. أجل إن الذلة والمسكنة مضروبتان عليهم في حقيقة الأمر، ولا أحد أصدق من الله، والتسربُل بالغضب قائم إلى قيام الساعة؛ ولكن أين الإسلام وأين المسلمون؟ وهنيئاً لأهل الثبات طلاب الشهادة الصادقين.

أبناء الله وأحباؤه!!

أخبار أعداء الله وأعداء أمتنا ـ وفيهم اليهود ومن على شاكلتهم ـ كما جاءت في القرآن الكريم، وفي بيانه من حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، تزيد المؤمن المتبصِّر ـ وهو يشهد الواقع المعبِّر باللغة التي لا تقبل الاحتمال ـ يقيناً على يقين، بأن ما عليه هؤلاء الناس في نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين، وفي منطلقاتهم، على صعيد التقويم لوجودنا الذاتي، وأين نأتي في التصنيف على سلم المواجهة والتحدي.. لا يكاد يختلف اليوم عما كان عليه بالأمس؛ من حيث الافتراء على الله، في دعاوى لا تمت إلى الحقيقة بصلة، والاستكبار البارد، والتعالي المقيت وتنوُّع صور المكر والأذى !! ناهيك عن عدم الإنصاف في الأحكام. ولكن التعبير عن ذلك: قد يختلف من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة، حسب متطلبات المعايشة ـ إن وجدت ـ وما تقتضيه المصالح الذاتية وتفرضه المواجهة، ناهيك عما لابد منه من التنفيس عن الحسد القاتل، والحقد الدفين.

هذه سورة المائدة ـ وهي من أواخر السور نزولاً في العهد المدني ـ تطالعنا بحكاية دعوى باطلة، هي محض افتراء صادر عن الفريقين: اليهود والنصارى، مع بيان شافٍ لبطلانها، وتقرير أنها عنوان تناقض وبهتان!!

ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

ولم يدع علماؤنا أن يوردوا في أسباب النزول الكلام الذي تذرّع به اليهود والنصارى، لادعاء ما ادّعوا من تلك الفرية الغبيَّة. قال الإمام الطبري: حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: «أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبحريُّ بن عمرو، وشأس بن عدي، فكلَّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا، يا محمد !! نحن – والله – أبناء الله وأحباؤه!! كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ إلى آخر الآية».

وروى ابن أبي حاتم والطبري من طريق أسباط عن السُّدي في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾: «أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولداً من ولدك أدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي منادٍ أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل، فأخرجهم. فذلك قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤] وأما النصارى: فإن فريقاً منهم قال: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

ونجد عند القرطبي قوله: السُّدي: زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل عليه السلام أنْ ولدُك بكري من الولد. قال غيره: والنصارى قالت: نحن أبناء الله، لأن في الإنجيل حكاية عن عيسى «أذهب إلى أبي وأبيكم». وقيل: المعنى نحن أبناء الله فهو على حذف مضاف.

وقد أورد العلامة الطاهر بن عاشور عدداً من النصوص التي يُزعم أنها من التوراة والإنجيل، وهي واردة في هذا الشأن، وقال: «وكلها جائية على ضرب من التشبيه، فتوهمها دهماؤهم حقيقة، فاعتقدوا ظاهرها». هذا ما قاله ـ رحمه الله ـ. ولكن السياق القرآني لا يدل على أن ذلك قالة الدهماء من اليهود والنصارى، بل قد يكون أصحاب تلك القالة المفتراة، أحبارَهم ورهبانَهم في الأصل، كما هو الشأن في غيرها، ولا ننسى كم حرّفوا كلام الله عن مواضعه واشتروا به ثمناً قليلاً كما أخبر القرآن. وعناية الكتاب الكريم بحكاية هذه الدعوى العريضة، وردُّه على قائليها يكشف تناقضهم، وتوجيههم إلى وجوب العدول عن الباطل إلى الحق، الأمر الذي يدل ـ والله أعلم ـ على ما نقول، ثم إنه هو نفسه ـ جزاه الله خير الجزاء ـ ابتدأ كلامه في تفسير الآية بقوله: «مقال آخر مشترك بينهم ـ يعني النصارىٰ ـ وبين اليهود، يدل على غباوتهم في الكفر، إذ يقولون ما لايليق بعظمة الله تعالى، ثم هو مناقض لمقالاتهم الأخرى، عُطف ـ يعني هذا المقال ـ على المقال المختص بالنصارى وهو جملة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾.

وعلى كل ما يعاني المسلمون من أخلاق اليهود، ومن لفَّ لفَّهم في كل عصر، ودلالة واقع الحال: شاهد صدق على أحقية ما جاء في كتاب الله عنهم، وعن النصارى، فقد كان علماؤنا غايةً في الإنصاف، من حيث النظر في الكلام، وتحليله بدقة، وسلامة الاستنباط لدلالته على ما يذهب إليه صاحبه، وإقامة الحجة على الخصم بمنهجية وتجرد، ينأى عنهما الآخرون الذين لا يعرف الإنصاف ـ في الأعم الأغلب ـ إلى نفوسهم سبيلاً، عندما يواجهون بالحكم ما ينسب إلينا من كلام، أو فكر، ومعتقد.

هذا الحافظ ابن كثير: بعد أن أشار ـ وهو يفسر الآية ـ إلى أن الله تعالى يقول رداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ قال: أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله قال لعبده إسرائيل: «أنت النبي بكري» فحملوا هذا على غير تأويله وحرَّفوه.

وجميل ما كشف اللثام عنه وأوضحه من أن هذا التحريف، وتأويل الكلام على غير موضعه، لم يرض عنه غير واحد من عقلائهم الذين أسلموا؛ إذ قال هؤلاء ـ وهم على علم بمصطلحات القوم ـ هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام. ثم قال – رحمه الله –: أما النصارى: فقد نقلوا عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم يعني ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدَّعوا لأنفسهم من النبوَّة ما ادَّعوها

في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك: معزَّتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

ويمكن القول بأنهم عطفوا ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ على ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ لأنهم قصدوا أنهم أبناء محبوبون، إذ قد يكون الابن مغضوباً عليه.

وما أدهاهم في العبث بالألفاظ، احتياطاً لأنفسهم، وتلبيساً على الآخرين، كالذي رأينا في هذه الحقبة من صياغة بعض قرارات ما يدعى بـ «هيئة الأمم المتحدة» في شأن القضية الفلسطينية، وما أدراك ما القضية الفلسطينية!! وعلى ذلك فقسْ!

وتظل الفرية الظالمة التي تكشف عن تناقضهم، ومخالفة سنن الله في خلقه بما يدّعون.. تظل هذه الفرية فاقعة الشكل والمضمون؛ ولو سرنا ـ على مضَضٍ ـ مع العلامة جمال الدين القاسمي في قوله: (أي قالوا: نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء في المنزلة والكرامة ونحن أحباؤه لأننا على دينه) وذلك في تفسيره «محاسن التأويل».

هذا ولم يُعوز العلماء أن يجدوا في الآية نفسها قاعدة الرد على هذا الادعاء الغبيّ المقيت؛ وذلك بالكشف عن تناقضهم فيما يقولون، ثم بيان ما يحمل كلامهم من زعم أن لليهود والنصارى ـ وهم بشر ممن خلق الله ـ ميزةً تخالف عن سنة الله في خلقه أجمعين: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨].

وفي هذا درس لنا ـ نحن المسلمين ـ في أن نكون على الجادة في سلوكنا الفكري والعملي، فلا نقع فيما وقع فيه أولئك الأناسي من

التناقض المهين، والسقوط فيما هو مخالفة عن سنن الله في خلقه، وأن تكون لدينا الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، تقويماً للاعوجاج، وعودة مطمئنة عن الخطأ إلى الصواب!!

وهذا الدرس ـ على أهميته ـ مضموم إلى ما حملت الكلمات المباركات من تفنيد لتلك الدعوى العريضة التي يراد لها أن تكون عند القوم وسيلة من وسائل الاستكبار في الأرض، والوصول إلى غايات هابطة، ما نزال نرى انتساب نظائرها اليوم إلى ما تنتسب إليه من الحرب على الحق وأهله، وعلى الإنسان وإنسانيته في العالمين، بدعواهم أنهم شعب الله المختار!!

قال شيخ المفسرين في «جامع البيان»: «يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكذبة المفترين على ربهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾، يقول: فلأي شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم، إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه؛ فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مقرُّون أنه معذبكم؟ وذلك أن اليهود قالت: إن الله معذبنا أربعين يوماً عددَ الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم يخرجنا منها، فقال الله لمحمد ﷺ: قل لهم: إن كنتم ـ كما تقولون ـ ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فلم يعذبكم بذنوبكم؟.

«يُعلِمُهم عزَّ ذِكْرُه أنهم أهلُ فريةٍ وكذبٍ على الله جلَّ وعز».

هذا عن الشق الأول من الرد؛ إذ كشفت الكلمة القرآنية ـ كما رأينا عند أبي جعفر ـ عن التناقض الذي وقع فيه الفريقان من جراء دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فلو كانوا أبناءَه لما عذبهم، لكن اللازم منتف، إذ

يلزم من كونهم أبناءه وأحباءه ـ كما يزعمون ـ أن لا يعذبهم، وشأن المحب أن لا يعذب حبيبه، وشأن الأب أن لا يعذب أبناءه، ولكن الله عذبهم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وأعدّ لهم في الآخرة جهنم وبئس المهاد، جزاءَ كفرهم وافترائهم وكذبهم، بل هم معترفون بأنه سيعذبهم بالنار يوم القيامة أياماً معدودات.

ومن لطائف ما يذكر بهذه المناسبة: أن أحد كبار السالكين وهو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي المشهور بـ«الشبلي» والمتوفى سنة ٣٣٤هـ سأل بعضَ الفقهاء: ـ ويروى أن المسؤول كان المقرئ المحدث النحويَّ أبا بكر بن مجاهد المتوفىٰ سنة ٣٢٤هـ ـ أين تجد في القرآن أن المحبَّ لا يعذب حبيبه؟، فلم يهتد إلى ذلك، فقال له الشبلي: في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس – رضي الله عنه – قال: مرَّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال: فخفَّضهم النبي ﷺ فقال: واللهُ ما يلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد.

وجميل ما ذهب إليه السمرقندي من أن في الآية دليلاً على أن الله تعالى إذا أحب عبده، يغفر ذنوبه، ولا يعذبه، لأنه تعالى احتج عليهم فقال: فلم يعذبكم لو كنتم أحباء إليه؟ وقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ففيها دليل أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤].

والملاحظ أن الرد على أهل تلك الدعوى الباطلة، لم يقتصر في الآية الكريمة على إعلامهم بأنهم أهل افتراء وكذب على الله سبحانه، بل تبع ذلك ـ وهذا هو الشق الثاني من الرد ـ تقرير أنهم بشر من خلق الله، وله جل شأنه في عاجل أمر عباده وآجلهم، سنة ماضية، ومشيئة نافذة، وما دام الأمر كذلك: فهو يعامل هولاء الفئام من الناس كما يعامل سائر الخلق، فلهم أسوة فيهم، ولا مزية لهم عليهم، فالكل لآدم وآدم من تراب؛ ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨].

ولقد جلَّى أبو جعفر الطبري هذه النقطة تجلية تامة فقال: «يقول جل ثناوه لنبيه محمد ﷺ: قل لهم: ليس الأمر كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ يقول: خلقٌ من بني آدم، خلقكم الله مثل سائر بني آدم؛ إن أحسنتم جوزيتم بإحسانكم كما سائر بني آدم مجزيون بإحسانهم، وإن أسأتم جوزيتم بإساءتكم، كما غيركم مجزيٌّ بها؛ ليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه، فإنه يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان به ذنوبه، فيصفح عنه بفضله، ويسترها عليه برحمته فلا يعاقبه بها ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يقول: ويعدل على من يشاء من خلقه، فيعاقبه على ذنوبه، ويفضحه بها على رؤوس الأشهاد، فلا يسترها عليه».

وحسنٌ أن نعرِّج على ما اتجه إليه القرطبي في الكلام على هذه القضية، إذ آثر ـ وهو يرد على أولئك المبطلين دعواهم من خلال الكلمة القرآنية في دلالتها القطعية على تسفيه ما ذهبوا إليه ـ: آثر الاستعانة بشيء من منهج الجدليين في عصره؛ فبالجملة ـ كما يقول ـ رأى أصحاب تلك الدعوى المزعومة يهوداً ونصارى ـ لأنفسهم فضلاً، فردَّ الله عليهم قولهم فقال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلم يكونوا يخلون ـ كما يقول ـ من أحد وجهين؛ إما أن يقولوا: هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذاً أبناءَه وأحباءَه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تقرّون بعذابه؛ فذلك دليل على كذبكم ـ وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف ـ أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذِّبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم، ويبيحوا المعاصي، وهم معترفون بعذاب العصاة منهم ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم.. وقيل: معنى ﴿يُعَذِّبُكُم﴾ عذَّبكم؛ فهو بمعنى المُضيِّ؛ أي فلم مسخكم قردةً وخنازير؟ ولم عذب من قبلكم اليهود والنصارى بأنواع العذاب وهم أمثالكم؟ لأن الله سبحانه لا يحتج عليهم بشيء لم يكن بعد، لأنهم ربما يقولون: لا نعذب غداً، بل يحتج عليهم بما عرفوه.

قال القرطبي: (ثم قال ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي كسائر خلقه يحاسبكم علي الطاعة والمعصية ويجازي كلاً بما عمل ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي لمن تاب من اليهود ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من مات عليها).

وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨] فالسماوات والأرض كلها

سواء في كونها خلقاً وملكاً له، تحت قهره وسلطانه، وإليه ـ سبحانه ـ المرجع والمآب، فيحكم في عباده بما يشاء، إنه العادل الذي لا يجور، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم أحداً من خلقه.

هذا: وكما عوّدنا العلامة البقاعي؛ نراه يقفنا في هذه الآية على إحاطة بالمعنى لا تخلو من جدة في بعض الوقفات، ومزيد من البيان. قال ـ رحمه الله ـ في «نظم الدرر»: «ولما عمّ سبحانه في ذكر فضائح بني إسرائيل تارة، وخصّ أخرى، عمَّ يذكر طامَّة من طوامِّهم، حملهم عليها العُجبُ والبطر بما أنعم الله به عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ أي كل طائفة قالت ذلك على حدتها خاصة لنفسها دون الخلق أجمعين ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ أي بما هو ناظر إلينا به من جميع صفات الكمال ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي غريقون في كل من الوصفين ـ كما يدل عليه العطف بالواو ـ».

وعلى طريقته في السير المرحلي من أجل الكشف عن التناسب ـ ما أمكن ـ قال: «ثم شرع ينقض هذه الدعوى نقضاً بعد نقض، على تقدير كون البنوة على حقيقتها أو مجازِها». وبعد أن أتى على بعض النصوص المزعومة التي تذرعوا بها لهذه الشبهة ـ والتي رأينا بعضاً منها آنفاً ـ دلف إلى تقرير أن «أول نقض نقض به سبحانه وتعالى هذه الدعوى: بيان أنه يعذبهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ أي إن كنتم جامعين بين كونكم أبناء وأحباء؛ بين عطف البنوة وحنو المحبة، ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ وعذابهم مذكور في نص توراتهم في غير موطن، ومشهور في تواريخهم، بجعلهم قردة وخنازير،

وغير ذلك؛ أي فإن كان المراد بالبنوة الحقيقة: فابن الإله لا يكون له ذنب، فضلاً عن أن يعذَّب به، لأن الابن لا يكون إلا من جنس الأب ـ تعالى الله عن النوعية والجنسية والصاحبة والولد علواً كبيراً!! ـ وإن كان المراد المجازَ: أي بكونه يكرمكم إكرام الولد والحبيب، كان ذلك مانعاً من التعذيب.

ولما كان معنى ذلك، أنه يعذبكم لأنكم لستم أبناء ولا أحباء، عطف عليه نقضاً آخر أوضح من الأول ـ وهذا من بلاغة القرآن في إقامة الحجة ـ فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ وذلك أمر مشاهد؛ والمشاهدات من أوضح الدلائل؛ فأنتم مساوون لغيركم في البشرية والحدوث، لا مزية لأحد منكم على غيره في الخلق والبشرية، وهما يمنعان البنوة، فإن القديم لا يلد بشراً، والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوصفين البنوة، وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحباء الله، فبطل الوصفان اللذان ادَّعوهما».

ومما هو جدير بالكثير من التأمل المبصر: أنه تلا الكلمات المباركات التي كان الحديث يدار حولها، وهي قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ الآية.. تلاها قوله عزَّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩] فهذا كلام قاطع للعذر؛ إذ جاءهم البشير النذير ـ على فترة من الرسل ـ وما عليهم إلا أن يؤمنوا.

ذلك بأنه لما دحضت حجتهم، ووضحت فريتهم الكاذبة الظالمة على الله؛ والقرآنُ الكريم ـ أولاً وآخراً ـ كتاب هداية يهدي إلى الحق وإلى صراط

مستقيم، اقتضى ذلك ـ والله أعلم ـ الالتفات إلى تجديد دعوتهم إلى طريق الهدى، ووعظهم على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنونه حجة لهم، وهو ذريعة يراد لها أن تنطلي على المسلمين، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾ الآية، فلا عذر لمعتذر وحجة الله البالغة قائمة على من عرف الحق واتخذه وراءه ظهرياً، وراح يفتري ويكذب ويمكر.. وقد ختمت الآية ـ كما نرى ـ بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال العلامة البقاعي: «وفي الختم بوصف القدرة، وإتباعه تذكيرهم ما صاروا إليه من العز بالنبوة والملك، بعدما كانوا فيه من الذل بالعبودية والجهل.. إشارة إلى أن إنكارهم لأن يكون من ولد إسماعيل عليه السلام نبي، يلزم منه إنكارهم للقدرة».

وبعد: فليذكر المسلم ـ فيما يذكر من حقائق الكتاب والسنة وأخبارهما ـ قول الله الكبير المتعال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ ومن الغفلة بمكان: الإعراض عن ثوابت الكتاب والسنة في شأن اليهود وغيرهم من أعداء الله. والآثارُ المدمرة لهذا الإعراض في حياة الأمة، لا تخفى على ذي بصيرة. فكأين من حقيقة من هذه الحقائق، أو خبر من تلك الأخبار التي تنير السبيل إلى منطلقات أعداء الله والحق، في مواقفهم من كل ما له صلة بالإسلام والمسلمين، لو أخذناها بقوة، ووضعناها موضعها اللائق على صعيد كل من التصور، والتطبيق العملي عند التعامل مع أولئك الأناسي.. لما ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وحوصرنا

في عقر دارنا، وزُيِّنَ لكثير منا باطل العدو، كما هو حاصل اليوم في كثير من البقاع!!

ومهما بدأ مرضى القلوب وأعادوا: فالحقيقة المشرقة بنور السماء حقيقة أبداً، ناصعة أبداً، لا يضيرها جهلٌ أو تجاهل، ووقوع أهل النفوذ في جيل من أجيال الأمة في حمأة الجهل أو التجاهل والغفلة لسبب أو لآخر، لا يعفي من المسؤولية، والعمل على وضع الحق في نصابه، مهما غلا الثمن في المال والنفس وما إليهما؛ ولنذكر أنه لأمر ما جعل النبي ﷺ لتالي القرآن بكل حرف عشر حسنات، والمضاعفة حاصلة بإذن الله؛ فالمؤمن يتلو الحقيقة القرآنية ـ في الولاء والبراء أو الجهاد الخالص في سبيل الله.. وله ـ بجانب الهداية التي تعلي من شأن الفرد والجماعة والأمة في الدنيا والآخرة ـ بكل حرف عشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء.

نسأله تعالى عزيمة الرشد والثبات في الأمر، وأن نكون ممن يوالون في الله ويعادون في الله. وهو ـ جل شأنه ـ حسبنا ونعم الوكيل.

وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون

ما رأينا من الكلام على واحدة من تخرصات يهود في سورة البقرة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾ الآية، وما تلاها، يخلص بنا إلى موطن آخر في الكتاب العزيز يطالعنا بما يقرر ويؤكد إصرارهم، أو إصرارهم والنصارى على تلك المقولة المفتراة كذباً على الله تعالى؛ إذ نقرأ في سورة آل عمران قوله جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٤].

ينكر الله سبحانه وتعالى على اليهود الذين أوتوا نصيباً من التوراة، وهم متمسكون بهذا النصيب على زعمهم.. ينكر عليهم شديد الإنكار الذي جاء على صورة التقرير والتعجيب بالاستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام، أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى التوراة التي تحمل نصوصها أمرهم باتباع النبي ﷺ، أو إلى التحاكم إلى القرآن الذي أمروا أن يؤمنوا به، تولَّوا وهم معرضون. وقد يكون المقصود مع اليهود: نصارى نجران كما تدل بعض الروايات؛ فالنصارى أيضاً أمروا باتباع محمد ﷺ وأن يؤمنوا بالقرآن وبمن أنزل عليه، ولكنهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، سواء أكان الإنجيل أو القرآن، كان منهم الإدبار

والإعراض. وفي هذا من الفريقين ما فيه من شديد الضلالة ومجاهرة الله بالعداء؛ ولذلك جاء التنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد.

وقد جاء في بعض الروايات لأسباب النزول عند الإمام الطبري، ما أخرج بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله فقال له نعيم بن عمرو – أو نعمان بن عمرو – والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه، فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً!! فقال لهما رسول الله ﷺ: هلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم! فأبيا عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ ومن الواضح أن الفريق الذي تولى وأعرض: هم الرؤساء والعلماء.

وهذا يذكِّر بقوله تعالى في سورة ال عمران: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾**﴾ [آل عمران: ٦٧ – ٦٨].

كما روى شيخ المفسرين عن قتادة: قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ الآية، أولئك أعداء الله اليهود، دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، وإلى نبيه ليحكم بينهم، وهم يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة والإنجيل، ثم تولوا وهم معرضون. أجل لقد تولوا بأجسامهم، معرضين بقلوبهم عن كتاب الله، وهم بحقيقته وحجيته عالمون!

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «إن الله جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنهم على غير الهدى، فأعرضوا عنه».

وممن اتجه إلى أن المقصود بالذين أتوا نصيباً من الكتاب في الآية: اليهود والنصارى: الحافظ ابن كثير: ذلكم قوله في تفسيره للآية: «يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين - فيما يزعمون - بكتابيهم اللذين بأيديهم - وهما التوراة الإنجيل - وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، تولّوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم في المخالفة والعناد. ثم قال: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾».

وهكذا تجد أن اليهود مكذبون بالقرآن، مصدقون - على حد زعمهم - بالتوراة، وكذلك النصارى: تجدهم مكذبين بالقرآن، مصدقين - بزعمهم - بالإنجيل؛ فكانت الحجةُ عليهم جميعاً بتكذيبهم بما هم به - كما يدَّعون ويزعمون - مؤمنون، وبأحكامه مستمسكون، أبلغَ، وللعذر أقطع، لأن كلاً من التوراة والإنجيل، آمر بالإيمان بمحمد ﷺ، وبالكتاب الذي أنزل عليه وطاعته في ذلك!

والملاحظ أن الكلمات الهاديات، كشفت بوضوح عن أن هؤلاء الذين أبوا الانصياع لدعوة التحاكم إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق، فيما نازعوا فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنما فعلوا ما فعلوا من التولي

والإعراض، بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب ـ وهذا تخرُّص يهود ـ إلا أياماً قليلة هي الأيام الأربعون التي عبدوا فيها العجل، أما النصارى: فباعث هذا الضلال عندهم: أنهم واليهود ـ بزعمهم ـ أبناء الله وأحباؤه؛ وقد كانت لنا وقفة عند كل من الزعمين الباطلين فيما سبق. وبذلك انعدم اكتراثهم باتباع الحق، لأن اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال، مصدِّقين فريتهم الكاذبة عليه ـ سبحانه ـ جرَّأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض الظالم الذي صحب التولي ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فذلكم هو السبب.

هكذا زين الشيطان لهؤلاء الكفرة أن يقعوا في مباءة الكذب على الله، فاخترعوا من تلقاء أنفسهم أن الله مسهل لهم أمر العقاب ـ وهم على ما هم عليه ـ ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ـ كما يقول العلماء ـ ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسُّهم بذنوبهم وضلالاتهم، إلا أياماً معدودات، وهم يعلمون أنهم هم الذين افتروا هذا من قِبلَ أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطاناً.

قال القاضي البيضاوي في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال: «بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن النار لن تمسَّهم إلا أياماً قلائل، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلَّة القسم».

وإذا كان الأمر كذلك: فمن دقة الأسلوب القرآني وروعته في الحديث عن هؤلاء المغضوب عليهم والضالين، أن الله تعالى أعقب الآيتين السابقتين بما يليق بصنيعهم، من وعيد شديد، وتهديد غليظ، واستعظام لما أعد لهم في ذلك اليوم الذي لا ريب في أنه كائن وواقع، يجزى الناس فيه بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا يظلم ربك أحداً؛ فكيف يكون حال هؤلاء العابثين وهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه، حيث لا يغني عنهم بهتانهم وإفكهم، شيئاً، ويظهر للعيان أن ما حدثوا به أنفسهم وسهّلوه عليها، إنما كان تعللاً بباطل، وطمعاً فيما لا يكون، لما أنه مخالف لسنن الله في خلقه، كما مرّ في سورة البقرة. ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٥].

جاء في «جامع البيان»: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ فأيُّ حال يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب الله، واغترارهم بربهم، وافترائهم الكذب؟ وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد، وتهديد غليظ.

وإنما يعني بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ الآية: فما أعظم ما يلقون من عقوبة الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليوم يوفّى كل عامل جزاءَ عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه، لأنه لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم، ولا يؤاخذ إلا بما عمل، يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحد من خلقه يومئذ ظلماً ولا هضماً».

هذا: ومن بلاغة القرآن العظيم التعبير بقوله: «ليوم» باللام، وليس «في يوم» وذلك أنه لو كان «اللام» «في» لكان معنى الكلام ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة، ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب؟ وليس ذلك المعنى في دخول «اللام» ولكن معناه مع «اللام»: فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه، ولما يكون في ذلك اليوم من فصْل الله القضاء بين خلقه، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب؟ فمع «اللام» في «ليوم لا ريب فيه» نيَّةُ فعل، وخبرٌ مطلوب قد ترك ذكره، أجزأت دلالة دخول «اللام» في «ليوم» عليه منه. وليس ذلك مع «في» فلذلك اختيرت «اللام» بدلاً من «في».

الطامات الثلاث!!

والذي يحسن التنبه إليه أن ما ذكر في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ الآية ليس القضيةَ كلها في صنيع الضالين سواء السبيل، المغضوب عليهم في الدنيا ويوم الدين؛ فالأمر لا يقتصر على توليهم وإعراضهم عن كتاب الله، حين يدعون إلى التحاكم إليه فيما نازعوا خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، متعللين بافتراء كاذب على الله يسهِّلون به على أنفسهم ما يقعون فيه من شدة الضلالة؛ بل هنالك موبقات وطامات أخر، كل واحدة أسوأ من أختها، جاء ذكرها في الكتاب الكريم قبل الكلام على هذه الموبقة، بدءاً من الآية الحادية والعشرين من سورة آل عمران؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ**

النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١ - ٢٢].

ففي هاتين الآيتين ما يدل أوضح الدلالة على أن أهل الكتابين التوراة والإنجيل، كانوا مرتكبين لهذه المآثم؛ وهي الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق - ولا يقتل النبيُّ إلا بغير حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس. وفي ذلك ما فيه من الإضرار للفرد والجماعة، ناهيك عن ذلك التعدي الظالم لحدود الله.

وقد جاءت الكلمة القرآنية صريحة في ذمهم، فيما اجترحوا من الاستكبار على الحق وأهله، والعتوِّ عن أمر الله بتلك المحارم التي جِماعُها: تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، تلك التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فأضافوا إليه أن قتلوا من قتلوا من النبيين المبلغين عن الله، حين بلغوهم عن الله شرعه الذي به تنتظم الحياة، ويسعد المؤمنون العاملون به في الدنيا والآخرة؛ كل أولئك بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق، وبيّنوا لهم سبيل الرشاد، ونهوهم عما يأتون من معاصي الله وركوب ما يركبون من الأمور التي قد تقدم الله إليهم بالزجر عنها؛ نحو زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، وما أشبههما من أنبياء الله.

ويبلغ بهم التهاون في الدين، والاستهتار بدم أهل الصلاح والإصلاح: أن يضموا إلى قتل النبيين، قتل من يتبعهم آمراً بالمعروف

ناهياً عن المنكر ويصدق في دعوة الناس إلى ما دعوا إليه: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ روى الإمام الطبري عن قتادة في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ قال: هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكِّرونهم، فيقتلونهم؛ وهذا ـ بلا ريب ـ غاية الكبر والاستعلاء الظالم على الحق وأهله، كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط لناس» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كما أخرجه أبو داود أيضاً من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، وهو جزء من حديث سئل فيه النبي ﷺ عن الكبر ـ كما سبق ـ.

ومن بلاغة القرآن العظيم أنه جيء بصلات الموصول «الذين» بالأفعال المضارعة «يكفرون» «يقتلون.. يقتلون» لتدل على استحضار الحالة الفظيعة المنكرة، وليس المراد إفادة التجدُّد؛ لأن ذلك وإن تأتى في قوله: «يكفرون» لا يتأتى في قوله: «ويقتلون» لأنهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط في زمن مضى، والمراد من أصحاب هذه الصِّلات ـ كما يرى العلامة الطاهر بن عاشور ـ يهود العصر النبوي؛ لأنهم الذين توعدهم بعذاب أليم، وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم ـ كما أشرنا غير مرة ـ لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم الذين قتلوا زكريا، لأنه حاول تخليص ابنه يحيى من القتل، وقتلوا يحيى لإيمانه بعيسى، وقتلوا النبيَّ إرْمياء بمصر، وقتلوا حزقيال النبي لأجل توبيخه لهم على سوء أفعالهم، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام؛ فهو معدود لهم بإقرارهم وإن كانوا كاذبين فيه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾

[النساء: ١٥٧] وقتل منشا بن حزقيال ملك إسرائيل النبيَّ أشعياء: نشره بالمنشار، لأنه نهاه عن المنكر، بمرأى ومسمع من بني إسرائيل ولم يحموه، فكان هذا القتل معدوداً عليهم!

وكم قتلوا ممن يأمرون بالقسط!! وكلُّ تلك الجرائم معدودة عليهم؛ لأنهم رضوا بها وألحوا في وقوعها.

وإني مذكِّر بما جاء في السنة من استفظاع هذه الجريمة النكراء، ـ كما سبق ـ والترهيب الشديد منها، وأن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يجترئ على ذلك؛ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الزبير الحسن بن علي بن مسلم النيسابوري نزيل مكة قال: حدثني أبو حفص بن عمر ابن حفص ـ يعني ابن ثابت بن زرارة الأنصاري ـ قال: حدثنا محمد ابن حمزة قال: حدثني أبو الحسن مولى لبني أسد عن مكحول عن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي عن أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ قال: «قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾**﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر؛ فقُتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل».

وهكذا رواه ابن جرير ـ ولكن بلفظ «فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عُبَّاد بني إسرائيل ـ عن أبي عبيد الوصّابي محمد بن حفص عن ابن حمْير عن أبي الحسن مولى بني أسد عن مكحول به.

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بَقْلِهم من آخره». رواه ابن أبي حاتم.

قال الإمام الطبري: «فتأويل الآية إذاً: الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر الله ونهيه، الذين ينهونهم عن قتل أنبياء الله وركوب معاصيه».

ولا تعجب بعد هذا إذا قابلهم الله على صنيعهم الفاجر المخزي الذي أولُ سماته التكبر عن الحق والاستكبار على الخلق: بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة؛ فقال سبحانه: ﴿ ...فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ والمعنى: فأخبرهم يا محمد وأعلمهم: أن لهم عند الله عذاباً مؤلماً وهو الموجع المهين.

وعلى السنن القرآني الحكيم في وضع الأمور مواضعها، والتنبيه على ربط النتائج بالمقدمات، وأن الجزاء من جنس العمل: بيَّنَ سبحانه أن هؤلاء المذكورين الذين ديدنهم الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس: هم الذين حبطت أي بطلت

أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ فأما في الدنيا: فلم ينالوا بها مَحْمَدَةً ولا ثناءً من الناس، بل العكس هو الصحيح؛ لأنهم كانوا على ضلال وباطل، ولم يرفع الله لهم بها ذكراً، بل لعنهم ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ وهتك أستارهم، وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمةً متجددة، فذلك حبوطها في الدنيا. وأما في الآخرة: فإنه أعد لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه، وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بوراً لا ثواب لها، لأنها كانت كفراً بالله وعدواناً صارخاً على الحق وذويه؛ فجزاء أهلها الخلود في الجحيم.

وهذا الجزاء لا حيلة لهم في دفعه ـ وقد كان لهم في الدنيا من العبث والمراوغة ما كان ـ وذلك ما ختمت به الآية من قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ يعني: وما لهؤلاء المفسدين من ناصر ينصرهم من الله، إذا هو انتقم منهم بما سلف من إجرامهم واجترائهم عليه فيستنقذهم منه، ويصرف عنهم العذاب.

هذا: وقد زاد الأمر وضوحاً: كما ذهب إلى ذلك صاحب «التحرير والتنوير» – رحمه الله – من أن المعنى هنا: (أن اليهود لما كانوا متدينين يرجون من أعمالهم الصالحة النفع بها في الآخرة بالنجاة من العقاب، والنفعَ في الدنيا بآثار رضى الله على عباده الصالحين؛ فلما كفروا بآيات الله، وجحدوا نبوة محمد ﷺ، وصوّبوا الذين قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط، فقد ارتدوا عن دينهم، فاستحقوا العذاب الأليم؛ ولذلك ابتدئ به بقوله: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.

فلا جرم تحبط عمالهم فلا ينتفعوا بثوابهم في الآخرة، ولا بآثارها الطيبة في الدنيا.

ومعنى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ومالهم من ينقذهم من العذاب الذي أنذروا به.

وجيء في قوله: ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ بمن الدالة على تنصيص العموم، لئلا يترك لهم مدخل إلى التأويل).

وهكذا تدل الآيات بمجموعها ـ بدءاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ الآية وهي الآية الحادية والعشرون من سورة آل عمران، وانتهاء بالآية الخامسة والعشرين وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ...﴾ [آل عمران: ٢٥] الآية.. تدل على أن ما اقترفه هؤلاء المغضوب عليهم الضالون ـ وكان ديدنهم ـ لا يقتصر على توليهم معرضين عن الاحتكام إلى كتاب الله، فيما نازعوا فيه رسول الله ﷺ، وتعليل أنفسهم بسهولة هذا العصيان؛ لأن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودات! ولكن هنالك أنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس.

وقد أحسن الحافظ ابن كثير صنعاً حين أعقب تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾ حتى قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بما يكشف عن أن الوعيد في الآية الخامسة والعشرين كائن على تلك الجرائم كلها؛ ذلكم قوله رحمه الله: (.. قال الله متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف

يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك في وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾).

وفي خاتمة المطاف: أود التنبيه على أن المطلوب من المسلمين ـ والحال هي الحال ـ أن يثوبوا إلى سواء الصراط، فيتحاكموا إلى حقائق القرآن الكريم وبيانه من السنة النبوية في شأن التعامل مع يهود ومن هم على شاكلتهم ـ على اختلاف المناهج في بعض الأحيان ـ غير ناسين ما توعد الله به أهل الكتابين على توليهم معرضين عن التحاكم إلى كتاب الله، وتمويههم على أنفسهم وعلى الآخرين، بأن عاقبة هذا الإجرام الشنيع سهلة محتملة لأن النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودات.

فالتوجه بالعقل الأخروي، والتحليل الواعي لوقائع التاريخ، وما أعقبه نسيان أو تناسي المسلمين ـ أو أهل النفوذ فيهم ـ لهذه الحقيقة: كل أولئك مدعاة إلى مراجعة حقبة الإعراض والتولي عن الاحتكام إلى حقائق الكتاب والسنة ـ مصحوباً ذلك بالأخذ بالأسباب ـ ماذا صنعت ودمّرت!!

والشجاعةُ في النقد الذاتي، والرجوع إلى الحق: محمدةٌ تعني الخطوة الصحيحة على طريق العودة الصادقة إلى الله، والإخلاص في الاستنارة بهدي الحقائق الربانية.

والعاقبةُ الحميدة من وراء ذلك محققة إن شاء الله، لا يحول دونها الغثاء العارض ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

والله ناصر هذه الأمة إن صدقت في نصره، وعمدت بالجهاد ـ على تنوع ميادينه ـ إلى تغيير واقع ينتسب من بعض الوجوه إلى قول الشاعر العربي: «خلا لك الجو فبيضي واصفري»

والحمد لله أولاً وآخراً وهو حسبنا ونعم الوكيل.

لن تمسَّنا النار إلا أيَّاماً معدودة!!

في حديث موصول بما كنا بصدده من الرحلة مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ الآية يبدو النسب متصلاً في هذا الموضوع ـ على وجه العموم ـ بما أخبر الله عن زعم اليهود أن النار لا تمسّهم إلا أياماً معدودات، وزعمهم مع النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وهذه واحدة من خلائقهم.

ففي سورة البقرة: بعد أن بيّن الله تعالى أن من اليهود أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم لا يظنون، أي لا يفقهون من الكتاب الذي أنزل على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرّصون الكذب، وينتحلون الأباطيل، كذباً وزوراً وإن هم إلا يظنون.. يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويكتبون ذلك بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً مجترئين على أن يقولوا: هو من الكتاب، وما هو من الكتاب، بل أمانيٌّ يتمنونها، جاحدين نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. وبعد أن توعدهم الله على ذلك بالويل ـ وهو جبل أو واد في النار ـ وانتقل إلى تقرير أن الويل لهم مما كتبت أيديهم، وأن الويل لهم مما يكسبون، وذلك قوله تعالى في كلام عن خلائق يهود وممارساتهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

بعد هذا جاء الكلام على واحدة من مزاعمهم وتخرصاتهم؛ وهي أن الله اختصهم بأن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودة، وحملت الكلمة القرآنية ما يدحض هذا الزعم الباطل، ويبرز الحقيقة ـ كما هي ـ للمؤمنين؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾** ﴾.

[البقرة: ٨٠ – ٨٢].

إنها دعوىٰ عريضة تصحب ضلالهم البعيد، وحربهم المعلنة والخفية على الله ورسوله والمؤمنين.. يقولون: لن تمسَّنا النار ـ لن تلاقي أجسامنا النار ولن ندخلها ـ إلا أياماً معدودة. وقد تعددت الروايات وتنوّعت في المراد من تلك الأيام المعدودة؛ فهل المراد: الأيام التي عبدوا فيها العجل، أو غير ذلك؟ روى الطبري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ قال ذلك أعداءُ الله اليهود، قالوا: لن يُدخلنا الله النار إلا تحلَّة القسم، الأيام التي أصبنا فيها العجل، أربعين يوماً، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عنا العذاب والقسم. وروى مثل ذلك عن قتادة والسدي والضحاك. ونجد أيضاً عند شيخ المفسرين ما أخرج في «جامع البيان» من رواية محمد ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ويهود تقول: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذب يوماً واحداً في النار مكان كل ألف سنة من أيام الدنيا، فإنما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله عز وجل ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا**

مَّعْدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ وقال الضحاك: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التي هي نابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنم وتهلك.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان من تخرصاتهم الباردة التي تنبئ عما تكن صدورهم من الحقد الأسود على المسلمين: دعوى أنهم يمكثون في جهنم أربعين يوماً، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها ـ على زعمهم ـ المسلمون. وقد رأينا من قبل ما يدل على هذه الدعوى الباطلة، وذلك عند الكلام على محاولاتهم اغتيال الرسول ﷺ بالسّم.

وتحمل إلينا المصادر قول عكرمة: «اجتمعت يهود يوماً تخاصم النبي ﷺ. فقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ـ وسمَّوْا أربعين يوماً ـ ثم يخلفنا ـ أو يلحقنا ـ فيها أناس، فأشاروا إلى النبي ﷺ وأصحابه. فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أنتم فيها خالدون مخلَّدون، لا نلحقكم ولا نخلفكم فيها إن شاء الله أبداً».

وأورد الحافظ ابن كثير ما روى ابن مردويه بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، قال: كذبتم، بل أبوكم فلان، فقالو: صدقت وبررت. ثم قال لهم: هل أنتم صادقي على شيء إن

سألتكم عنه، قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيَّ في شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً فقالوا: نعم. قال: فما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرَّك» ورواه أحمد، والبخاري، والنسائي، من حديث الليث بن سعد بنحوه. كما رواه البخاري والدارمي عن أبي هريرة وقد رأينا فيما سبق الرواية التي تنصُّ على أن زينب بنت مشكم هي التي وضعت السمَّ، وإنها عندما سئلت عن سبب ذلك؟ أجابت بالجواب المذكور! وقد جرت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وفي عود على بدء: يتضح أن الآية التي نسعد باصطحابها، تحمل هذا البيان لبعضٍ آخر من جناياتهم وتخرصاتهم فيما ادعوا لأنفسهم من أنهم ـ مع كل ما هم عليه من الانحراف الظالم ـ لا تمسهم النار في الآخرة إلا مدةً يسيرة، ومرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها، بل يخلفهم فيها المسلمون ـ على زعمهم ـ لأن كل معدود لابد أن ينقضي. وقد كان ذلك الإفك ـ بما يبعث على الغرور واستسهال التهاون في أمور الدين والخلق ـ مدعاةً لأن يقدموا على المعاصي ومجانبة الحق دونما خوف أو تحسُّب!

ويتضح ذلك إذا كنا على ذكرٍ من الآية السابقة ـ التي آذنت بأن فريقاً من اليهود، يتخرَّصون الكذب على الله، ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً ـ والقول بعطف ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ على ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فيكون المعنى: فعلوا ذلك وقالوا لن تمسنا النار. ووجه المناسبة ـ كما جاء في «التحرير والتنوير» أن قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ دلَّ على اعتقاد مقرر في نفوسهم يشيعونه بين الناس بألسنتهم، قد أنبأ بغرور عظيم من شأنه أن يقدمهم على تلك الجريمة وغيرها؛ إذ هم قد أمنوا من المؤاخذة إلا أياماً معدودة، تعدل أيام عبادة العجل، أو أياماً عن كل ألف سنة ـ كما سبق من قيلهم في هذا ـ وأن ذلك عذاب مكتوب على جميعهم؛ فهم لا يتوقون الإقدام على المعاصي لأجل ذلك؛

وهكذا نجد أنه بالعطف على أخبارهم، حصلت فائدة الإخبار عن عقيدة من ضلالاتهم، وما أكثرها!! ولموقع هذا العطف، حصلت فائدة الاستئناف البياني، إذ يعجب السامع من جرأتهم على هذا الإجرام.

هذا: وعلى السنن الخيِّر في منهج القرآن الكريم بوضع الأمور مواضعها؛ بيّن الله ـ جلّ ذكره ـ إفكهم في هذه الدعوى الضالة ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ لأن العقل لا طريق له إلى معرفة ذلك، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى، وهو منتفٍ بلا ريب، فقال تباركت أسماؤه: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠].

يقول الله لنبيه ﷺ: قل يا محمد لمعشر اليهود: أأخذتم بما تقولون

من كون النار لن تمسَّكم إلا أياماً معدودة، من الله ميثاقاً، فالله لا ينقض ميثاقه، ولا يبدِّل وعده وعقده ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ أي أم لم يكن ذلك، فأنتم تقولون مفترين على الله الباطل ـ وهو ما لا تعلمون ـ جهلاً وجراءة عليه. وفي هذا ما فيه من توبيخهم والإنكار عليهم.

ولا بد من التنبيه على أن قولهم المحكيَّ، وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه، لكنه مستلزم له؛ لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى.

وقد روى الطبري في تأويل عن ابن عباس وقتادة والسدي ما يؤيد ذلك ويقرره؛ فعن قتادة: قالت اليهود: لن ندخل النار إلا تحلَّة القسم، عدَّة الأيام التي عبدنا فيها العجل، فقال الله: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ بهذا الذي تقولونه؟ ألكم بهذا حجةٌ وبرهانٌ؟ فلن يُخلف الله وعده، فهاتوا حجتكم وبرهانكم ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟

ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨١ - ٨٢].

فهذا تكذيب من الله للقائلين من اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وإخبار منه لهم ـ كما يقول العلماء ـ أنه معذبٌ من أشرك، ومن كفر به وبرسله وأحاطت به ذنوبه، فمخلِّده في النار؛ فإن الجنة لا يسكنها إلا أهل الإيمان به وبرسوله، وأهل الطاعة له والقائمون بحدوده وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «﴿بَلَى مَن

﴿كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

فالله تعالى يقول لهم: ليس الأمر كما افتريتم، ولا كما تشتهون؛ بل الأمر: أنه من عمل سيئة، وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة تنير طريقه إلى الجنة، بل جميع عمله سيئات، ظلمات بعضها فوق بعض؛ فهذا من أهل النار. والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات ـ من العمل الموافق للشريعة ـ فهم من أهل الجنة.. وأين أنتم من ذلك وقد هدمتم قاعدة الإيمان، ثم بنيتم من العلم السيء والسلوك المردي ما يوصلكم إلى جهنم وبئس المهاد؟! قال الحافظ ابن كثير: وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

ولا يخفىٰ ما في التعبير القرآني المعجز، من واضح الدلالة على ردِّ تلك الدعوى المفتراة؛ فقوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ إبطال لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ لأن كلمات الجواب تدخل على الكلام السابق لا على ما بعدها وعلى هذا: فكلمة ﴿بَلَى﴾ إثبات لما بعد حرف النفي في قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا﴾ فالمعنى: بلى، بل أنتم تمسُّكم النار أبداً، بدليل قوله سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والسيئة هنا: الشرك ـ كما يقول أبو جعفر ـ

وإحاطة الخطيئة: اجتماعها على صاحبها وموته عليها قبل التوبة والإنابة منها؛ فمن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، غمرته من جميع جوانبه، فما أبقت له حسنة، وسدت عليه منافذ النجاة؛ بأن عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، أيها اليهود ـ كما قال عبد الله بن عباس ـ حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

من هنا: لم يكن في هذه الآية حجة للزاعمين خلود أصحاب الكبائر من المسلمين في النار، إذ لا يكون المسلم ـ وهو بحمد الله من أهل التوحيد ـ محيطة به الخطيئات، بل هو لا يخلو من عمل صالح يجوز به ـ بفضل الله وعونه ـ إلى الجنة، ولو بعد حين، وحسبك من ذلك سلامة اعتقاده من الكفر بالله، وسلامة لسانه من النطق بكلمة الشرك الخبيثة. وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن أهل الإيمان لا يخلدون في النار، وأن الخلود فيها ـ أعاذنا الله من ذلك ـ لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان، قال الإمام الطبري بعد أن قرر هذا: «فإن الله جل ثناوه قد قرن بقوله: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكان معلوماً بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان».

وهذا ما حدا بالعلامة القاسمي أن يفرد هذه القضية المهمة من قضايا العقيدة بتنبيه خاص، فقد جاء في كتابه «محاسن التأويل»: «(تنبيه) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود في النار إنما هو للكفار

والمشركين، لما ثبت في السنة تواتراً، من خروج عصاة الموحدين من النار، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك. ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود».

وعند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال القاضي البيضاوي رحمه الله: «جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده، لترجي رحمته ويخشى عذابه، وعطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه». وكان الإمام الرازي فصّل في ذلك بعض التفصيل.

وجميل ما وجّه إليه الحافظ ابن كثير، بأنه عند الكلام على هاتين الآيتين ـ بدءاً من قوله تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ في الثانية ـ وجاء على ذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا سليمان بن داود قال: حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبي عياض عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقّرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلاً؛ كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها».

ولا يعزب عن البال أنه كما فهم من قوله تعالى: «بلى من كسب سيئة» الآية: أن من عمل مثل أعمالكم ـ أيها اليهود ـ وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره، فما له من حسنة وروى ذلك عن ابن عباس..

كما فهم ذلك هناك؛ فكذلك الأمر ـ ولكن على النقيض ـ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ الآية إذ روى محمد ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «أي: من آمن بما كفرتم به ـ يعني يا معشر يهود ـ وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها؛ يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله لا أبداً انقطاع له».

وما دام الأمر كذلك: فليت أن المسلمين يكلفون أنفسهم وعي ما هدى إليه القرآن في شأن يهود، ليدركوا أيَّ إفكٍ مفترى ودعاوى مكذوبة لا يقوم عليها دليل تكمن وراء الغطرسة والاستكبار وتبييت الشر والأذية دائماً للمسلمين!!

تلك أمانيُّهم:

ولعل مما يتصل بافتراء أهل الكتابين التوراة والإنجيل على الله وتخرصاتهم الآثمة في ذلك، ما ذكر القرآن عنهم من قيلهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى...﴾ [البقرة: ١١١] إنها دعوى جدٌّ هابطة، تحمل بين طياتها تألياً على الله تعالى ومجاهرة بتكذيب سننه في خلقه حيث العدل والإحسان في ترتيب المثوبة أو العقوبة في الآخرة على العمل في الدنيا. ذلكم قول الله جل شأنه: في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١] وبعد أن أكذبهم الله وبيّن أن كلامهم دعوى بلا دليل، ذكَّر سبحانه بسنته الحكيمة التي لا تتبدل، فقال جل ثناؤه:

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١٢].

وأنت ترى أن هذه الدعوى المفتراة التي كشفت الكلمة القرآنية عن كذبها، على نسب إلى قول اليهود والنصارى ـ كما أسلفنا ذكر ذلك ـ ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ حيث أكذبهم الله تعالى وأخبرهم ـ لو كانوا يعقلون ـ أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا وسوّلت لهم أنفسهم، لما كان الأمر كذلك، كما أنها على نسب بقيلهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ـ أو ﴿ مَّعْدُودَات ﴾ ـ ثم ينتقلون إلى الجنة على زعمهم، مهما كان حجم الجناية والإثم في الدنيا!! وقد رأينا كيف كان الرد القرآني عليهم في هذه أيضاً.

وعلى السنن نفسه، وبالأسلوب القرآني الفريد: كان الرد على افترائهم على الله في شأن دخول الجنة وقصر ذلك عليهم، وهي دعوى لا يقوم عليها دليل، ولا أثارة من حجة أو بينة؛ فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ فهي أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق، ولا حجة ولا برهان، ولا يقين علم بصحة ما يدّعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة، وهو ما قاله قتادة والربيع بن أنس كما روى الطبري، وأسنده ابن كثير إلى أبي العالية.

وفي استكمال لدفع الدعوى، بالطريق النيرة الواضحة قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ حجتكم، ـ بينتكم ـ على ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وأنّى لهم ذلك.

هكذا يتنزل الوحي لمعالجة هذا البهتان الذي يدل على ما تحمل دخائل النفوس من الانحراف المتأصل، والذي له ماله من الآثار على صعيد تعامل هؤلاء الناس مع المسلمين.. يتنزل الوحي، فيأمر الله جل ثناؤه نبيه ﷺ بدعاء الذين قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ إلى أمر عَدْلٍ بين جميع الفرق مسلميها، ويهودها، ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادّعوا؛ من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى. قال شيخ المفسرين. «يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تزعمون من ذلك فنسلم لكم دعواكم إن كنتم في دعواكم ـ من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ـ محقّين».

وقد روى الطبري عن قتادة في تفسير «هاتوا برهانكم» هاتوا بينتكم، كما روى عن السدي ومجاهد والربيع بن أنس ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هاتوا حجتكم. ويكون المعنى: أحضروا هذا البرهان وأتوا به ـ كما أشرت آنفاً ـ.

ومهما يكن من أمر: فإن هذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ إلى إحضار بينة ـ أو حجة ـ على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه ـ كما يقول العلماء ـ بمعنى تكذيبٍ من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهانٍ أو أثارةٍ من برهان على دعواهم المفتراة تلك أبداً.

ولا يعوزك أن تجد ما يقرر ذلك ويؤكده؛ فقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أبان عن أن الذي ذكر من الكلام فيما تدل عليه الآية هو بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهم وما ذكر الله عنهم.

ذلك بأن النقلة من تحدي أولئك المفترين، أن يأتوا بالبرهان على ما ادعوا، إلى قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نقلة إلى ما فيه تقرير القانون الرباني الحكيم الذي يقفنا على ما به يكون العبد أهلاً لدخول الجنة؛ الأمر الذي يكشف عوار تلك الدعوى، وأن أصحابها أدعياء يتظاهرون على سنة الله في خلقه، والحكم على عاقبة كل منهم كيف تكون.

فمن أخلص دينه لله، وهو متبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، فله حسن العاقبة؛ يزحزح عن النار ويدخل الجنة في زمرة الداخلين ـ برحمة الله وفضله ـ لأن للعمل المتقبل شرطين مابد من توافرهما حتى يكون كذلك.

أحدهما ـ أن يكون خالصاً لله وحده لا يشركه فيه أحد.

والآخر ـ أن يكون موافقاً للشريعة على هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام.

فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً، كان ذلك حائلاً دون قبوله، روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». فعمل الأحبار والرهبان ومن

شابههم، وإن فرض أنهم يخلصون فيه ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وفي أمثالهم قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩] وروي عن أمير المؤمنين عمر، أنه تأولها في الرهبان.

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله؛ إذ داخل العملَ ما داخله، مما يتنافى مع الإخلاص لله وحده، فهو أيضاً مردود على فاعله؛ وهذا حال المنافقين والمرائين الذين يشركون بعبادة الله غيره، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٤ - ٧] ولهذا قال جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في هذه الآية من سورة البقرة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي بلى من أخلص طاعته وعبادته له، محسناً في فعله ذلك بأن كان عمله وفق الشريعة المطهرة ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

إنه ضمان من الله تعالى لهم على ذلك، تحصيلَ الجزاء والثواب عنده سبحانه في المعاد، والأمن من المحذور؛ على ما عبدوه مسلمين وجوههم له وهم محسنون؛ فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه في الدنيا، ولا أن يمنعوا ما قدموا عليه من نعيم ما أعد الله لأهل طاعته. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ للموت.

ومن لطائف التعبير القرآني هنا ـ لما أن القرآن جاء على معهودات العرب في الخطاب ـ: أن الله جل ثناؤه قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فأتى بضمير الجمع، وقد قال قبل: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ بضمير الفرد. ذلك لأن ﴿مَنْ﴾ التي في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ في لفظ واحدٍ ومعنى جميعٍ، فاللفظ مفرد، والمعنى للجمع، وعلى هذا: فالتوحيد في قوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ للَّفظ ـ باعتباره مفرداً ـ والجمع في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ للمعنى ـ باعتبار دلالته على الجمع ـ والله أعلم.

هذا: ولعل من البداهة بمكان، أن الناظر في الآيتين الكريمتين، يدرك تمام الإدراك مدى رعونة المسلك الذي يتظاهر أصحابه على القانون الرباني، وسنة الله في خلقه وتدبيره الحكيم؛ فهو خالق عباده وأعلم بما يصلحهم في دنياهم وآخرتهم، وهو الذي يحكم لا معقب لحكمه.

ومما يقرر ذلك ويؤكده: ما أخبر عنه القرآن من الموقف المعادي الذي يقفه النصارى واليهود بعضهم من بعض على ساحة المعتقد، مع دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، ذلكم قوله

تعالى في أعقاب الآيتين السابقتين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣].

الذين كفروا من أهل الكتاب..
وإخوانهم المنافقون

لعل من الضرورة بمكان، أن لا نغادر القول ـ ونحن نقترب من خاتمة المطاف على ساحة هذه العجالات ـ فيما توحي به نصوص الهدى في الكتاب والسنة، من الثوابت التي ينبغي تنهيج التعامل من خلالها، مع يهود ومن هم في بؤرتهم يعمهون ـ كما هو مقتضى الإيمان ـ.. أن لا نغادر القول في ذلك ـ على وجازة ما نقول ـ دون التذكير بآصرة بئست الآصرة؛ أعني آصرة الأخوة التي أحكمت العلاقة في عصر النبوة وما تلاه، بين اليهود وبين مرضى القلوب أهل النفاق الذين أخبر الله أنهم في الدرك الأسفل من النار، كيما يأخذ التنبه على ذلك، مكانه الطبيعي من التصوُّر الواعي على طريق المواجهة؛ إدراكاً للأمور على حقيقتها، بمعرفة الأصل الذي تنتمي إليه، وقدرةً على تعليل الوقائع وتفسير التاريخ، علماً بأن الله جل شأنه نبَّه الأمة على هذا حين كشف عن تلك العلاقة بين الفريقين، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

ولقد كان هذا التلاحم بين يهود وبين المنافقين ـ وهم على ما هم عليه من الكفر الأسود وتبييت الأذى لأهل الإيمان ـ صورة من صور خيانتهم للعهد وخروجهم على الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ مقدَمه إلى المدينة، ونقضاً للميثاق الذي تضمنته، بكل ما يحمل هذا الميثاق من كفالة لحقوقهم على خير وجه.

والناظر المتبصِّر في ردِّ الجزئيات إلى كلياتها، وربط المسبَّبات بأسبابها، لا يجد غرابة في هذا التآخي بين الفريقين؛ ـ وما أكثر الروابط التي تشد النظير إلى نظيره ـ على العداء المتأصل للإسلام، ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه والمسلمين:

لذا: فإن بواعث التلاقي على تلك الآصرة العفنة، قائمة في كل عصر، لما أن سَداها ولحمتها، ضلال مبين في عدوان على الحق وحقد دفين على دين الإسلام وكل ما يمتُّ إليه بصلة، ناهيك عن البغي والحسد من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وإن اختلفت وسائل التنفيذ حسب مقتضيات التطور واختلاف البيئات، وموقع المسلمين على خط المواجهة الذي يقف فيه الأعداء بالمرصاد!!.

وإنها لحقيقة توجب أن يكون المسلمون ـ في كل ظرف وموقع ـ مؤهلين على الوجه الذي توحي به المواجهة ويفرضه الواقع الأليم، شديدي الحذر واليقظة، مدركين لما يدور حولهم على الصعيدين الإقليمي والعالمي، دونما خروج على الثوابت التي تشرق بها نصوص الهدي الرباني، وتؤكد الوقائع أحقيتها يوماً بعد يوم. ومن هذه الثوابت: حقيقة التلاحم بين اليهودي والمنافق في كل عصر ومصر، دونما كلفة أو مقدمات!!

وحين نعود إلى نقطة البدء في دواعي الالتقاء بين من عبدوا الطاغوت وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وغضب الله عليهم، ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، وبين المنافقين الذين عتوا عن أمر الله واستمرؤوا الولوغ

في الدنية والإثم، فأصمهم الله وأعمى أبصارهم: يضع الإمام الطبري أيدينا على نقطة مهمة في الموضوع؛ قوامها عداء اليهود للرسول ﷺ ودعوته، ومسارعة المنافقين ـ وقد رأوا النموذج الهابط الذي أعجبهم ـ إلى سلوك السبيل نفسها في عداوة الحق وأهله، تحت مظلة النفاق الذي كان يسلكه اليهود أيضاً في بعض الأحيان.

فعند الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨] أورد الإمام أبو جعفر الطبري عدداً من الآثار ـ التي رواها بسنده ـ في بيان ذلك، كان آخرها قول ابن جريج - رحمه الله -: «هذا المنافق، يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيته، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه» ثم قال ـ أجزل الله مثبوته ـ: «وتأويل ذلك أن الله جل ثناؤه لما جمع لرسوله ﷺ أمرَه في دار هجرته، واستقرَّ بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دور أهلها الإسلام، وقهر المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذلَّ بها من فيها من أهل الكتاب: أظهر أحبار يهودها لرسول الله ﷺ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن، حسداً وبغياً، إلا نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] وطابقهم سراً على معادة النبي ﷺ وأصحابه وبغيهم الغَوائلَ قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه ـ وكانوا قد عَسَوْا في شركهم وجاهليتهم.. وظاهروهم على ذلك في خفاءٍ غيرِ جهار؛ حذار القتل على أنفسهم، والسِّباء من رسول الله ﷺ وأصحابه،

وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام. فكانوا إذا لقوا رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به من أصحابه، قالوا لهم ـ حذاراً على أنفسهم ـ إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق، ليدرؤوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ماهم معتقدوه من شركهم. وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، فخَلَوْا بهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤] فإياهم عنى جل ذكره بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨]. يعني بقوله تعالى خبرا عنهم: آمنا بالله ـ: مصدّقنا بالله».

هكذا التقى أولئك المنافقون الذين خرجوا على الطريق الهادية التي سلكها الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ مع اليهود، الذين كان منهم ما كان من العداوة والكيد والضغائن والشنآن حسداً وبغياً، وشاركوهم بغيَ الرسول ﷺ وأصحابه الغوائل ـ وهي النوائب المهلكة ـ.

والعلّة التي ضربت على قلوب أولئك المنافقين الذين خالفوا عن مسلك ذويهم من الأنصار؛ أنهم قد عسَوْا في شركهم وجاهليتهم، يعني عتوا وغلظت أكبادهم في الشرك وصلبت؛ فأطاعوا الهوى والشيطان مقيمين على الضلال العنادي، وراحوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ـ عليهم وعلى أمثالهم لعائن الله ـ ويشاركون اليهود المكر والمخادعة وتبييت الأذى للمسلمين. وهنا نقول في شأن الواقع ـ وهو ما تقرر غير مرة فيما سبق ـ: ما أشبه الليلة بالبارحة!

والذي يجب الوقوف عنده من الأمر، وينبغي أن يعطى ما هو جدير به من الأهمية على صعيد التبصُّر بالواقع، ومن هم الموالون ومن هم المعادون ـ بإطلاق ـ أن القرآن الكريم ـ كما أشرت من قبل ـ هو الذي نبَّه على تلك الحقيقة، حقيقةِ أن رباطاً نكداً، على غاية الأهمية في هذا الباب يربط بين اليهود والمنافقين، وهو آصرة الأخوة فيما بينهم!! ذلكم قوله جل ذكره في سورة الحشر بدءاً من الآية الحادية عشرة: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [الحشر: ١١] الآيات.

فالله تعالى يخبر عن المنافقين كعبدالله بن أبيّ رأس الفتنة فيهم وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر والمؤازرة على مختلف الأصعدة، فيما كان بينهم وبين المسلمين من الحرب.. وقد جاء التعبير القرآني مؤذناً بما تكنُّه صدور الفريقين من الأخوة الظالمة في وجه أهل الإيمان، فقال الله سبحانه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...** ﴾.

وهنا لا بدَّ من العودة إلى خبر ما حصل بين المسلمين وبين بني النضير من اليهود: وإن سبق ذكره في مناسبة أخري؛ ففي أعقاب ما جرى في بئر معونة ـ وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم ـ من العدوان الغادر على أربعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ـ وهم من خيار المسلمين ـ من قِبلَ عُصَيّة ورِعلٍ وذكوان استجابة لطلب عدو الله عامر بن الطفيل، حيث

قتلوهم عن بكرة أبيهم رضي الله عنهم وأرضاهم.. في أعقاب ذلك: قتل عمرو بن أمية الضّمري – رضي الله عنه – رجلين من بني عامر كان معهما عقد من النبي ﷺ وجوار لم يعلم هو به، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، وهو يظن أنه أصاب بقتل ذينك الرجلين ثؤرة من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال له رسول الله: «لقد قتلت قتيلين لأدينَّهما».

ثم خرج ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى بني النضير يستعينهم ـ عملاً بما نصت عليه الوثيقة ـ في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتل عمرو بن أمية رضي الله عنه للجوار الذي كان ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف.

فلما أتاهم رسول الله ﷺ لهذا الغرض، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا ـ أخزاهم الله ـ: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقى عليه صخرة، فيريحنا منه؛ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه ـ فداه أبي وأمي ـ كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عنهم، فأتى رسول الله الخبر من السماء، بنقض هؤلاء اليهود العهد، وهمِّهم متفقين بالغدر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقتله غيلةً، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استبطأ النبيَّ ﷺ أصحابُه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وهو في ديارهم، وأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، لما أن ذلك هو اللغة التي لا يصلح غيرها ـ بعد طول معاناة وسماحة وإكرام ـ مع الخونة الغدارين، الناقضين للعهد المستهترين بالمواثيق؛ وكان من أمر غزوة بني النضير ما كان، حيث انتهى الأمر بموافقة النبي ﷺ على جلائهم والكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلى الحلْقة ـ وهي السلاح عاماً أو الدروع خاصة ـ.

هذا: وقد أنزلت في بني النضير وما يتعلق بها سورة الحشر بكاملها وهي السورة المدنية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ١، ٢].

قال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير». ورواه البخاري ومسلم من وجه آخر عن هشيم به، ورواه البخاري من حديث أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير».

ومن الوقائع التي جاءت هذه السورة المباركة على ذكرها: ما سبقت الإشارة إليه وحوله ندندن. من التشجيع البالغ الذي لقيه يومذاك يهود بني النضير من رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ونفر من زبانيته، على الثبات في مواجهة الرسول ﷺ وأصحابه في معركة المصير، وقد كشفت الكلمة القرآنية الهادية عن أن الباعث على ذلك: ما هو قائم بين الفريقين من رابطة الأخوة التي يغذوها الكفر، والمعاداة المتأصلة في النفوس للإسلام والمسلمين، والرغبة في أن يستعلي الضلال والأذى، وتسقط راية الإيمان ومحاسن الأخلاق.. ولكن المنافقين يكذبون ويكذبون.. وكانت كذبتهم بلقاء حتى في هذه، فلم يفعلوا شيئاً مما آذنوا إخوانهم به، ولم يفوا بوعد واحد من تلك الوعود المشجعة على الاستمرار في المعركة إلى آخر الشوط! كما جاء تفصيل ذلك والتنبيه على ما يتصل به أو يترتب عليه، في السورة المومى إليها.

ها نحن نقرأ في ذلك قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١١ - ١٣].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد فترى إلى الذين نافقوا ـ وهم فيما ذكر عبدالله بن

أبيّ بن سلول، ووديعة بن مالك بن قوقل أو بن أبي قوقل، وسويد وداعس ـ بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب: أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة». وجاءت بعض الروايات على ذكر أسماء أخرى مثل: عبدالله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي..

ومن الآثار التي أخرجها شيخ المفسرين في ذلك ما روى بسنده عن سعيد بن جبير عن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – «﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني بني النضير وقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ يقول: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم وأجليتم عنها، لنخرجنَّ معكم فنجلي عن ديارنا ومنازلنا معكم. وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يقول: ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم وترك نصرتكم ولكنا نكون معكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ يقول: وإن قاتلكم محمد ﷺ ومن معه لننصرنَّكم يا معشر النضير عليهم وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يقول: والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد ﷺ لكاذبون في وعدهم إياهم ما وعدوهم من ذلك».

ومن بلاغة القرآن العظيم: هذا الاستفهام الذي جيء به للتعجيب من حال المنافقين، كيف أنهم مع ما ينتظمهم واليهود من التآخي على الكفر

والحقد الدفين على كل ما هو حق وخير، يكذبون على إخوانهم في كل ما أمَّلوهم؛ من النصرة والتعاون، ويخلفون كل ما وعدوهم به، من ذلك، وكون التعجيب يقع في خطاب للنبي ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ...﴾ يزيد الأمر وضوحاً فيما يشعر بتلك البلاغة الفاذة والأسلوب الرفيع؛ قال صاحب «التحرير والتنوير» في معنى الآية: «تأمَّل الذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم، ولا تترك النظر في ذلك فإنه حال عجيب».

وأنت واجد أن أقوال العلماء، تنصبُّ بادئ ذي بدء على أن الله تعالى وصف اليهود بأنهم إخوان المنافقين؛ لأنهم كانوا متحدين في الكفر برسالة محمد ﷺ، وينبني على ذلك ما ينبني مما يؤمل من التعاون على اتخاذ الأسلحة المناسبة للمواجهة كما يرون. وليست هذه أخوة النسب؛ فإن بني النضير من اليهود، والمنافقين الذين بعثوا إليهم ما بعثوا من الوعود المعسولة ونداءات التثبيت: من بني عوف من عرب المدينة، وأصلهم من الأزد. قال صاحب «الكشاف»: («لإخوانهم» للذين بينهم وبينهم أخوة الكفر؛ ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر).

على أن وصف إخوانهم ـ على الجميع لعائن الله ـ: بـ«الذين كفروا» إيماءً إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر في الأصل، ويترتب على ذلك ما يترتب ـ كما أسلفت ـ إلا أن كفر المنافقين كفر الشرك، وكفر إخوانهم كفر أهل الكتاب، وهو الكفر برسالة محمد ﷺ، مع علمهم بأن رسالته

من الحق وإليه، كما هو صريح كتابهم قبل التحريف ووضع الكلام غير موضعه.

وما ذكرته من قبل ـ مما يمليه واقع العلاقة بين هؤلاء وأولئك من التعاون الحاقد الآثم المستند إلى الكفر والعتو عن أمر الله ـ نجد تفصيله عند الإمام الرازي في «التفسير الكبير» حيث قرر أن الأخوة المذكورة تحتمل وجوهاً:

(أحدها) الأخوة في الكفر؛ لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد ﷺ.

(وثانيها) الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة.

(وثالثها) الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد ﷺ.

والواقع ـ كما أسلفت ـ أن التعبير القرآني المعجز في قوله تعالى: ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾ يجمع هذا كله، وهو ما تدل عليه الوقائع وتؤكده عبر العصور في شتى المناسبات. وكذب المنافقين على إخوانهم، لا يتنافى مع هذه الحقيقة التي يجب أن تأخذ مكانها في وعي الأمة على كل صعيد؛ خصوصاً حين تكون للنفاق سوق رائجة يؤمها الذين يبيعون دينهم بدنياهم أو بدنيا الآخرين، والذين يستهترون بقيم أمتهم وتاريخها ومقومات وجودها، في سبيل الحفاظ على متاع زائل يغشاه الذل ـ حقيقةً ـ والهوان.

هذا: والإجمال الذي نراه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جاء بيانه في قوله جل شأنه بعد هذا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾.

فالله تعالى يشهد على كذبهم فيما وعدوهم به؛ إمّا أنهم قالوا قولاً، ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، وإمّا أنهم لا يقع منهم الذي قالوه. ولهذا قال: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ﴾.

وعلى كلا المعنيين: فيه دليل على صحة النبوة وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه إخبار بالغيوب. وما أوضح هذا الإخبار بكذبهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي لا يقاتلون معهم.

وقد يتساءل امرؤ كيف قيل: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ وجواب ذلك ـ كما يرى صاحب «الكشاف» ـ: (أن المعنى ولئن نصروهم على الفرض والتقدير، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكما يعلم ما يكون، فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود، لينهزمن المنافقون، ثم لا ينصرون بعد ذلك؛ أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم. أو لينهزمنَّ اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين).

على أن العلاَّمة الطاهر بن عاشور جنح إلى أن ضمير «لا ينصرون» عائد إلى الذين كفروا من أهل الكتاب إذ الكلام ـ كما يرى ـ جار على وعد المنافقين بنصر إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. والمقصود تثبيت رسول الله ﷺ والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.

أما الحافظ ابن كثير: فذهب إلى أن معنى ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ ولئن قاتلوا معهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾، قال -رحمه الله-: وهذه بشارة مستقلة بنفسها.

وما من ريب في أن هذه البشارة متصلة الأسباب بكل زمان وفي كل ظرف يكون للمسلمين من عمق إيمانهم وأخذهم بالأسباب، وصدقهم في جهاد أعداء الله، ووحدة كلمتهم: ما يرتفع بهم إلى مستوى الأهلية لهذه المكرمة العظيمة، حيث يكتب الله لهم النصر ويديل لهم من أعدائهم.

وترى ذلك واضحاً كل الوضوح فيما تبع ذلك من قوله تعالى: ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله، كقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ولو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده، ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾.

ومهما يكن من أمر: فالمقصود ـ والله أعلم ـ تشديد نفوس المسلمين وتقويتها ـ وهم يخوضون معركة الإسلام والذود عن الحق المضيّع، وإنسانية الإنسان المهددة ـ ليعلموا أن عدوَّهم مُرهَبٌ منهم، وذلك مما يزيد جند الإيمان إقداماً في مواجهة أولئك الأعداء المتآخين على الكفر، والظلم، وقهر أهل الحق لو استطاعوا؛ إذ ليس الكلام ـ كما يقول العلماء ـ للتسجيل على المنافقين واليهود قلة رهبتهم لله ـ مع وقوع هذا لأنهم لا

يفقهون ـ بل إعلام المسلمين بأنهم أرهب لهم من كل أعظم الرهبات؛ لأنهم مسلمون بحق، مستمطرون لنصر الله.

وإنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب .. من المسلمين ـ كما يقول صاحب الظلال ـ أجزل الله مثوبته وجزاه خير الجزاء ـ عندما تتفرق قلوب المسلمين؛ فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها هذه السورة فيما سبق. فأما في غير هذه الحالة: فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ .. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

«والقرآن يقرر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين، ليهون فيها من شأن أعدائهم، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم؛ فهو إيحاء قائم على حقيقة؛ وتعبئةٌ روحية ترتكن إلى حق ثابت. ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد ـ إيماناً وإعداداً وصدقاً في المواطن ـ هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد، فلم تقف لهم قوة في الحياة.

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم؛ فهذا نصف المعركة. والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع، وفي سياق التعقيب عليه، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل، شرحاً يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه، ويتدبره كل من جاء بعدهم وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة!».

وإذا كان الأمر كذلك ـ والذين كفروا من أهل الكتاب تجمعهم على الكفر معاداة من أكرمهم الله بالإسلام آصرة الأخوة والتعاون على الإثم والعدوان، وإن كان بعضهم يكذب على بعض، وكثيراً ما تراهم متفرقي الأهواء والمصالح والقلوب في غياب وحدة المسلمين وقوتهم ـ إذا كان الأمر كذلك: فأي سقوط يغشى بظلامه هذه الأمة إن هي خالفت عما نهاها الله عنه نهياً بالغ الجزم والحزم في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾** ﴾ [المائدة: ٥١].

وأية مهانة نفسية وضعف إيماني، يعلنان إعلانهما في حياة الفرد والجماعة، ويترتب عليهما من الآثار المدمرة ما الله به عليم، حين يحصل الوقوع في الحمأة التي وقع فيها من عرَّت انهزامَهم النفسي والعملي الكلمة القرآنية في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾** ﴾ [المائدة: ٥٢].

وبعـــد

فهذا ما تيسَّر القول فيه ـ بعون الله ـ من الثوابت وخلائق يهود، كما تمليه النصوص وتوجب على الأمة العمل به، وأخذه بعين الاعتبار عند التخطيط والتنفيذ في مواجهة أعداء الله والحق؛ لأنه من الهدي الرباني الأمر الذي يذكّر بقوله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥١، ٥٢] وقوله جل شأنه في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وإذا تحقق ذلك، ذهب الغثاء أدراج الرياح، وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي في مصلحة الأمة وحقوقها، لا في مصلحة اليهود الظاهرين والمقنعين. وصدق ربنا إذ يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

ولله الحمد في الأولى والآخرة، وصلوات الله وأزكى تسليماته على من آتاه الله الحكمة في وضع الأمور مواضعها واستخدام اللغة المناسبة على

سلّم الهداية ونصرة الحق. لدى تعامله مع الأولياء ومع الأعداء، سيدنا محمد بن عبد الله الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله أعداء الله والحق وإنسانية الإنسان إلى يوم الدين.

الدكتور محمد أديب الصالح